أحلام المغتي الصغير
"مجموعة قصصية"

داود سلمان الشويلي

أحلام المغتي الصغير

"مجموعة قصصية"

الكتاب: أحلام المغني الصغير.
المؤلف: داود سلمان الشويلي.
الصنف: قصص قصيرة.
الطبعة: الأولى.
سنة الطبع: ٢٠٢٢.
حجم الورق: ٢١ ×١٥ سم
عدد الصفحات: (١٠٠) صفحة.
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٣٩٢٤) لسنة ٢٠٢١.

تصميم الغلاف: مطبعة الحسام.
الاخراج الداخلي: مطبعة الحسام.
الناشر مطبعة الحسام للطباعة والنشر.
عنوان المطبعة: ناصرية – شارع الحبوبي – قرب مأكولات الكنز.
الهاتف: ٠٧٨٠٦٦٧٧٤٠١

جميع الحقوق محفوظة
لايسمح باعادة اصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة معلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر. ان الآراء الوليدة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي المطبعة.

الاهداء:

الى حفيدي يمان صارم داود الشويلي

ما يشبه المقدمة

الواقع والوحدة العضوية في القصة

يقول الدكتور محمد غنيمي هلال: (يقصد بالوحدة العضوية في القصيدة وحدة الموضوع ووحدة المشاعر التي يثيرها الموضوع وما يستلزم ذلك في ترتيب الصور والأفكار ترتيباً تتقدم القصيدة شيئاً فشيئاً حتى تنتهي إلى خاتمة يستلزمها ترتيب الأفكار والصور على أن تكون أجزاء القصيدة كالبنية الحية، لكل جزء وظيفة فيها، ويؤدي بعضها إلى بعض عن طريق التسلسل في التفكير والمشاعر).[1]

والوحدة العضوية، مصطلح سأرحّله من عالم الشعر إلى عالم السرد "القصة، والرواية"، أي إلى عالم مجموعة من القصص القصيرة، على الرغم من أن أرسطو خصه بفن المسرحية والقصة، وتبعه الدكتور محمد مندور في ذلك.

ووحدة الموضوع، وهو معنى آخر للوحدة العضوية، بمعنى إن موضوع الأبيات الشعرية يكون واحداً، ولما كان معناه كذلك في الشعر، فإنه في القصة يكون موضوع القصص واحداً. أي أن كل قصة من هذه القصص التي تضمها مجموعة ما تضم الموضوع نفسه، أو إنها تحوم

(١) د، محمد غنيمي هلال – النقد الأدبي الحديث – دار العودة بيروت - ١٩٧٣– ص٢،٤.

حول ذاك الموضوع، وهو موضوعة "الواقع" مهما تغيّرت وتبدلت الطرق والأساليب في طرحه.

في هذه القصص التي اشتملت عليها هذه المجموعة المعنونة بـ (أحلام المغني الصغير) كان موضوع كل قصة، أو مجموعة من القصص، يختلف عن موضوع القصة، أو مجموعة القصص الأخرى، إلّا أنه يشترك في المصدر الذي يمتح منه أحداثه. وهي لا تنتظم في سلك موضوع واحد، ولهذا أسباب عديدة أهمها:

- إنها كتبت في فترات متباعدة، بين عامي ١٩٨٢ - ٢٠٢٠.
- إن ما يفرزه الواقع الذي كتبت فيه هذه القصص من موضوعات مهمة، قد أختلف عما يفرزه واقع قصص أخرى سابقة لها، أو من مجايليها، إلّا أنها في مكان، أو واقع آخر، ومختلف.
- اختلاف الذائقة الكتابية عند الكاتب، وتطورها.

لهذا نرى هذا الاختلاف الحاصل في مواضيع القصص التي تضمها هذه المجموعة.

تنتقل قصص المجموعة بين "واقع" فترة الحرب في الثمانينات، وبين "واقع" فترة الحرب في التسعينيات، وبين "واقع " فترة الاحتلال عام ٢٠٠٣ وما بعده، وبين "واقع" هذه الموضوعات، و"واقع " موضوع الحياة المدنية المسالمة البعيدة عن صوت المدافع، وأزيز الطائرات، وجعجعة السلاح، فهذه ليست القصص التي تنتمي لعالم الميدان الأمامي للحرب، ولا لعالم الميدان الخلفي لها، بل هي تنتمي لـ "واقع" عالم الحياة المدنية الزاخرة بكل ما هو بعيد عن عالم الحرب التي كُتبت على العراقيين.

إنني أؤكد دائما على لفظة "الواقع" لأن قصصي التي أكتبها هي واقعية في كل شيء، إلّا أنها قد تلبست صيغة

وإسلوباً معينين في التقديم يمكن أن أسميه مدرسة، مثل المدرسة السريالية، والمدرسة الرمزية، وهكذا.

فموضوع قصص من مثل نصوص: "الكرسي المتحرك"، و"النهر يجري دائما"، و"حكاية قصة"، و"طائر الفينيق"، و"المياه"، و"أحلام المغني الصغير"، ينتمي إلى موضوعة الحرب، إن كانت هذه الموضوعة تتحدث عن الجبهة الأمامية للحرب، أي ساحة المعركة، أو كانت تتحدث عن الجبهة الداخلية لها، أي داخل المناطق التي لم تصل لها الحرب، إلّا أن تأثيراتها قد لونتها بألوانها المعروفة، مثل المقاتل الذي فقد أطرافه في نص "الكرسي المتحرك"، ومثل الجسر المقصوف في نص "طائر الفينيق"، ونص"النهر يجري دائماً" وهو النص الذي فاز بالجائزة الأولى في المسابقة التي أقامتها وزارة الثقافة والإعلام العراقية عام ٢٠٠١، والصبي الذي يغني للجنود الموجودين في خلفيات ساحة المعركة كما في نص "أحلام المغني الصغير"، وباقي القصص الأخرى.

والشيء نفسه يمكن القول أن القصص القصيرة جداً والمعنونة بـ "الهاتف الأرضي، الوداع، الأمل الضائع"، التي تضمها المجموعة القصصية (النخيل يموت واقفا) يمكن عدها من هذا النوع، أي من نوع القصص الذي تتحدث عن الجبهة الخلفية للحرب حيث تتحدث عن ضابط شهيد، أعطى دمه للوطن بعد عام ٢٠٠٣.

أما بقية القصص القصيرة، والقصيرة جداً، فهي قصص يمكن أن نسميها قصص ذات طابع مدني، أي أنها لا تمت لقصص الحرب بأية صلة.

قصص مثل "الليالي، العيد، وكر الدبابير، يوميات قدح بلاستيكي شفاف، التابوت، وغيرها"، كُتبت لإشباع القسم "المدني" من الذائقة الكتابية عندي بعد أن أنقطع في نهاية

السبعينات حين جاءت فترة الحروب منذ الثمانينات وإلى الآن.

والروايات التي كتبتها تتحدث عن جوانب مهمة من حياتنا "المدنية" كما في رواية (التشابيه)، ورواية (أوراق المجهول)، أما قسمها الحربي، أو التعبوي من هذه الذائقة، فقد أشبع بما كتبته من روايات، مثل رواية (أبابيل) الصادرة عام ١٩٨٨ من دار الشؤون الثقافية العامة. ورواية (طريق الشمس) الصادرة عام ٢٠٠١ من دار الشؤون الثقافية العامة. وكذلك الرواية القصيرة (المأساة). وكذلك رواية (الحب في زمن ألنت)، ورواية (نخلة خوص سعفها كثيف) التي نشرت في مصر عام ٢٠٢٠، ورواية (الكمامة البيضاء والقفاز الأزرق) التي فازت عام ٢٠٢١ بمسابقة مانديلا للرواية، التي تتحدث عن معركة غير المعارك الحربية بل انها معركة مع مرض كورونا. وقصص قصيرة مثل المجموعة القصصية "طائر العنقاء" الصادرة عام ١٩٨٨ من دار الشؤون الثقافية العامة.

أترك هذه المجموعة السردية بين يدي القارئ الحصيف، وهي مجموعة كُتبت بين عامي ١٩٨٨ وعام ٢٠٢٠ وهي فترة طويلة جداً، ليقول فيها كلمته، إن كانت هذه الكلمة يقولها مع نفسه، أو يدونها وينشرها في أي مكان للنشر، فقد كنت أنا أمتح من الواقع ولكن بصيغ وأساليب أدبية متنوعة.

داود سلمان الشويلي

"الليالي"(*)

أدار نظره في أرجاء الغرفة، فرآها تسبح في بحر من الضوء الأحمر الهادئ، وصمت ممزوج ببرودة ثلجية، يمر عبر فتحة بابها الخشبي الموارب، وشباكها الصغير الذي نشرت عليه ستارة بلون فاتح.

كان جسدها يقبع بانكماش على السرير الخشبي، فيما راح (اللحاف) بقماشه (الساتان) اللامع يفرش حوله دفئه الوحيد.

مد نظره إلى الأسفل، كانت طفلته بسنواتها الأربع تمد ساقيها النحيلتين على جسد أخيها الذي يصغرها بسنتين، فراح الاثنان يغطان في نوم عميق، خيل له أن أنفاسهما لم تعد كما كانت، وأن جسديهما لم يتحركا قط. تساءل: هل هما يحلمان الآن؟ أجاب لنفسه: ربما. وراحت ابتسامة صغيرة تنفرش على شفتيه في حمرة بحر الغرفة.

نزل من على السرير. فرش على جسدي طفليه الغطاء الصوفي، ثم أطفأ سجارته وترك عقبها الأصفر في منفضة السكائر التي على هيئة رأس قرد أسود، بعدها طوى حافة صفحة الكتاب الذي كان يقرأ فيه قبل أن يغيّر لون فضاء الغرفة، ووضعه على المنضدة الصغيرة التي تقبع بسكون قرب السرير.

رأى إلى الزمن الليلي الذي ارتسم بلمعان فسفوري باهت على رسغ يده اليسرى، كان الوقت قد تأخر كثيراً وهو لم يزل مسهداً وقد جفى النوم عينيه.

حرك اللحاف ببطء. كانت زوجته تمد جسدها المخدّر بالنوم على طول السرير الذي ضمهما ليلة زفافهما الأولى، وثوبها يلتم ما بين الساقين، أبيض خفيف يشفّ ما تحته. كان وجهها ينظر – أو هكذا خيّل له – بعينين مغمضتين إلى جدار الغرفة الآخر، فيما كان طفله الثالث، بشهوره القليلة، ممسك بشفتيه الرقيقتين حلمة ثديها الذي استطال إلى أمام.

مد ساقيه. كانت الريح ترسل بردها، أسوداً، داكناً. سحب اللحاف بخفة كي لا يشعرها، إنه سيبدأ رحلة النوم، وصوت الريح خارج جدران الغرفة يصهل بوحشية كخيول برية مطاردة.

أدار جسمه إلى حيث كانت تنام، فأنبسط نظره على مجموعة من الخيول العربية وهي تسابق الريح بألوانها الداكنة، أحس بها تتقدم إليه. أغمض عينيه، لامست قدماه راحتي قدمي زوجته حيث كانتا دافئتين. إقترب منها، أحس بلفحة برد قد سرت تحت جلد ظهره. مد يده اليمنى حيث كان رأسها بشعره الأسود الفاحم مرتخياً على الوسادة الوردية اللون ذات النقوش الجميلة. أدخل كفه تحت رأسها بهدوء حتى خرجت من الجانب الآخر، فرأى جسدها يتحرك لاشعورياً. إقتربت منه، فلامس جسدها الدافئ برودة جسده، شعر أن خيطاً رفيعاً من الحرارة يسري في خلايا جسده. رفع رأسه، نظر إلى وجهها فألفاه قطعة باردة من اللحم الأبيض البض، وبعينين مغمضتين، وشفتين أختط اللون الوردي لهما حدوداً دقيقة:

- هل تشبهها حقا؟

تساءل مع نفسه، ثم ردد مجيباً:

- ربما!

عندها تذكرها. رآها بعد فترة طويلة، إسمرت صفحة وجهها، وترهل جسمها، وبدأ التعب يزحف إلى وجنتيها.

(- سلوى أتحبينني حقاً؟

...

- سلوى إخبريني؟

- وأهلي !؟ قالتها بحسرة.

وأنقطع الخيط الحريري الذي كان يربطهما سوية، ذلك الخيط الذي امتد لسنوات خمس خالها تلك اللحظة حلما قصيراً ولكنه لذيذ).

: هل تشبهها حقاً!؟

هكذا خيل له عندما طلبت منه أخته الكبيرة أن يتزوج منها، قالت له: (إنها صغيرة، وجميلة) ثم ضحكت.

هل كان يريد أن يشمت بها؟ بهم؟ بؤلئك الناس الذين قطعوا ذلك الخيط الحريري الناعم الجميل، أم لأنها – كما توهم في نفسه – تشبهها حقاً؟

ها هو جسدها الناعم يمتد بموازات جسده، فتسري فيهما الحرارة نفسها.

سألته ليلة عرسهما الأولى:

- هل تحبّها؟ أقصد أما زلت تحبّها؟

سكت.

كان سؤالها مفاجأة له. نظر إليها، إنها تعرف بقصة حبهما، هل كانت تسخر منه؟ أم من ذلك الحب، أم؟

كانت هي تنظر إليه، ضحكت. كانت ضحكتها كما أحس بها في تلك اللحظة سكاكين حادة تعمل ببطنه. وببرودة خلعت الوشاح الأبيض الذي كان يلم شعر رأسها الفاحم الطويل، فأنساب على ظهرها وطوّق خديها.

اقتربت منه. كان وجهها يشعّ فرحة، وخديها بلون الدم، وعيناها تلتمعان بنظرات قرأ فيهما ملامح الشماتة، إلّا أنه أكد مع نفسه تلك اللحظة: إنه لم يقترف أي ذنب بحقها، وها هو الآن يحبها.

صحيح أنه كان قبل أن يطلب يدها كان يحب (عمتها)، أما الآن فقد انتهى كل شيء.

هل يحبها كما كان في السابق؟ سأل نفسه تلك اللحظة، لكنه لم يفز بجواب، عندها رأى إلى وجهها مرة أخرى فألفاه بفم مبتسم، وأسنان ثلجية.

قال لها:

- هل تغارين؟

تحركت أمامه، جلست على حافة السرير الخشبي المغطى بالشرشف الناصع البياض، رفعت رأسها، كان هو مشغولاً بخلع ملابسه.

سألته:

- ولكن، أقصد الآن؟

أجابها وكأنه يريد أن يقطع مثل ذلك الحديث:

- إنها بعصمة رجل آخر؟

قالت له وكأنها تريد أن تطيل الحديث لتعرف أكثر مما يجب:

- هل تحن إليها؟ قالتها ببرود متعمد.

سأل نفسه:

- أيحبها حقاً؟ أيحن إلى مرآى وجهها كما تقول زوجته؟

لم يجبها وقتها. عندها نهضت. إقتربت منه. أدارت جسمها. وقفت أمامه بالضبط. وطلبت منه أن يفتح سحابة بدلتها البيضاء.

مد يده إلى كتفها، وترك أصابعه تجوس في ذلك التل اللحمي الطري. أمسك بيده الأخرى قبضة السحابة، وبحذر أنزلها، فانفتح جانبي البدلة عن قميص أبيض شفيف بحواش (دانتيلية) مزخرفة.

ترك قبضة السحابة. جذبها إليه، تركت هي جسمها يلف بين يديه.

" ----------

----------"

- سليم هل تسمع؟

- ها، ماذا؟! سألها بعد أن أجفله صوتها البارد.

- هل نمت؟

كان صوتها يأتيه من الجانب الآخر من السرير وهو يحمل بين كلماته خدر النوم، وبرودة جو الغرفة.

- سأنام. أجابها باقتضاب.

- هل تحس بشيء ما؟

سألته، ثم دارت له نصف وجهها، فرآى فيه فتحتين ضيقتين ما بين الرموش، وخصلة من شعر فاحم تمتد حتى فمها مارة بذلك الجبين الأبيض الذي رسم عليه في ليلة زفافهما قبلة باردة فجة في زحمة حشد من النساء المهللات، حيث مُلئت إذناه بصوت زغاريدهن وأغانيهن الأسيانة، و:

- سليم!

- نعم.

- هل تحس بألم؟

- كلا، كنت أحلم!

- ماذا؟!

قالتها باندهاش حاد، وأدارت وجهها إليه بأكمله. تحرك جسدها حركة سريعة، فأندلق نهداها سوية من فتحة ثوبها على حافة صدره ذو الشعر الكثيف، وبحركة بطيئة من يدها أجبرتهما على أن يعودا إلى مكانيهما، حيث الدفء، وقطرات العرق الصغيرة المزروعة كالندى.

- أتحلم وأنت مستيقظ؟!

سألته بعد أن فتحت عينيها على وسعيهما، نظرت إليه باستغراب، إبتسم لها. ضم رأسها إلى صدره. اقتربت منه. قالت:

- لماذا أطفأت المدفأة؟
أجابها ببرودة:
- إنه قريب منها.
ابتسمت. مدت يدها ولفتها حول ظهره، وأخذت تعبث بأصابعها عليه:
- نعم أحلم. قال لها.
سألته:
- بماذا؟
أجابها:
- بالأيام التي مضت.
سألته مبتسمة:
- وهل لي مكان في حلمك ذاك؟
أجابها:
- أنت في القلب.
ابتسمت له، ثم سألته:
- في الحلم أم في الواقع؟
قال لها وهو يبعد خصلة الشعر المفروشة على عينيها:
- الأحلام صدى للواقع.
قاطعته قائلة:
- سليم إنه الليل، ولا شيء غير ذلك، كفى فلسفة.
- أنا لا أتفلسف يا عزيزتي، صدقيني.
اقتربت منه كثيراً بوجه متهلل. قالت:
- أصدقك.
سحبت جسمها نحو الوسادة. رفعت قامتها إلى الأعلى واتكأت بكوعها حيث استراحت بوضعها ذاك. أحنت رأسها، فانهمر شلال شعرها الأسود على وجهه الأسمر، أزاحته بأناملها الرقيقة، قربت وجهها إلى وجهه.
(- سلوى، هل أكلّم اهلك؟

- نعم.
- لكنكِ لم تخبريني بمشاعركِ تجاهي؟
- ألا يكفي هذا، يا قيس؟
باندهاش أجابها:
- أنا لست بقيس!
ابتسمت:
- بل أنت هو، هكذا كانت قصائدك تخبرني.
- إلا أنني اختلف عنه!
قالت مبتسمة:
- أما أنا فأحب ليلى، ولا أختلف عنها لأنني أحبك)
"----------

----------"

- سليم؟

أفاق، كأن صوتها جرس يعزف موسيقاه العذبة. ابتسم لها. لم يعرف إن كان قد بادلها القبلة أم أنها أحست بذلك الخيط الثلجي الذي ملأ شفتيه؟

مالت بجسدها قليلاً، أحس بحركة قرب جسده، ورأى (اللحاف) ينفرش عليهما سوية. ثمة ثوب أبيض شفيف على حافة السرير الخلفية. فيما راحت الخيول تتقدم باتجاههم وهي تدوس بسنابكها بياض ذلك الثوب وتترك آثارا حمر عليه، عندها امتلأ جو الغرفة بصهيل الريح الذي كان في الخارج، وراح خيط من الدفء يسري في خلايا جسده كله.

كانون اول ١٩٩٤

***

(*) نشرت في مجلة (الثقافي) الالكترونية في عددها الذي صدر في ٢٧/ ١٠/ ٢٠١٣.

"العيد"(*)

(إعترافات رجل غلَبه النوم)

عندما عدت ليلة التاسع على العاشر من شهر ذي الحجة، أقصد، عندما عدت إلى بيتي في ساعة متأخرة من ليلة البارحة، أو لنقل: ها أنا أعود هذه الليلة إلى بيتي، حيث الوقت متأخراً جداً، وكعادتها، كانت زوجتي في انتظاري.

- نعم.

كعادتها في كل ليلة، ها هي الآن بانتظاري، وعلى الرغم من أنني أحمل النسخة الأصلية من مفاتيح أبواب بيتي، إلّا أنني ضغطت على زر الجرس الكهربائي، نعم ما زال أصبعي يضغط على مفتاح الجرس، مرة وأخرى حتى انفتح الباب الحديدي أمامي.

كانت زوجتي قد فتحت الباب مثل كل مرة، إذ بعد أن أضغط على مفتاح الجرس، يفتح الباب، فيلتقي وجهي بوجهها.

عندما فتحت زوجتي لي الباب ليلة البارحة في ساعة متأخرة من الليل، دخلت، لم تسألني سبب تأخري، ربما سألتني، إذ كنت مشغولاً بالأمر الذي قد تداولته من كل جوانبه منذ يومين، أنا أفكر به، تدارسته، وناقشته مع نفسي، عندها اتخذت قراري النهائي، لهذا فأنا لا أذكر إن كانت سألتني زوجتي عن سبب تأخري أم ...، المهم ها أنا جالس أتناول طعام العشاء، رغم تأخر الوقت.

قلت لزوجتي، أقصد فيما كان الطعام أمامي، طلبت منها قائلاً:

- أرجو أن توقظيني صباح غد في وقت مبكر.

هكذا بدأت تطبيق خطوات القرار الذي اتخذته مع نفسي مساء هذا اليوم.

كنت في سابق الأيام لا أنهض من فراشي إلّا في ساعة متأخرة، لذا، وبعد يومين من التفكير الجاد في ذلك الأمر، وتداول فكرته في ذهني، قررت أن أنهض مبكراً صباح يوم غد.

أذكر، لما سألتها مطلبي هذا، أقصد عندما قلت لها جملتي الطلبية تلك، كانت ابتسامة خفيفة ماكرة ترتسم على شفتيها.

وأنا أمضغ طعامي، تساءلت لحظتها، بالضبط تساءلت، سألت نفسي قائلاً: هل فَهمت قصدي؟

هكذا سألت نفسي وأنا أتناول طعام العشاء في تلك الساعة المتأخرة ليلة البارحة.

كانت زوجتي تجلس أمامي وكأنها تنتظر أمراً مني لعمل شيء ما، على الرغم من أن كل شيء أمامي في (الصينية)، حتى قدح الماء البارد، ولم تزل الابتسامة مرسومة على شفتيها، كما هي، ابتسامة ماكرة، لا أقصد ابتسامة امرأة ماكرة. إنما كانت الابتسامة هي بالضبط ما وصفتها تلك اللحظة بالمكر، هذا ما فهمته من تلك الإشارة التي بعثتها، أو لنقل التي ارتسمت على الشفتين، أو كما يقول (البنيويون)، ولكي أكون دقيقاً في تعبيري، (السيميائيون)، كانت دلالات ابتسامتها، أقصد الشفرة التي بعثت بها تلك الشفاه (وهذا من حقي، فأنا بعد أن طلبت منها مطلبي ذاك، كان من حقي أن أقرأ ما أصبح ناتجاً أمامي) ذلك لأن الابتسامة تلك وجدت فيها نصاً (محتملاً) لأكثر من قراءة، ولما كنت أعرف ما طلبته منها، وكذلك أعرف مسبقاً، إنها كانت تعرف جيداً ما

كان يشغلني خلال اليومين الماضيين، إن كان ذلك بحدسها، أو كان بسبب احتفاظها بمرجعيات ذلك الأمر منذ ثلاث سنوات، أقصد إنها كانت تعرف ما كنت أعانيه صبيحة أول أيام كل عيد عندما يطرق الباب.

أعود إلى القول، إنني كقارئ – ها أنا أضع نفسي كقارئ لنص أمامي – لخطاب مرتسم على الشفاه، لي الحق في أن أفهمه حسب مرجعياتي الخاصة، أو لنقل: أن أقوم بتأويله حسب ما أرغب، وهكذا، كانت الشماتة هي الرسالة التي بعثت بها تلك الشفاه.

كانت، وهي تجلس أمامي(مرسلاً)، فيما كنت أنا الجالس أمامها وصينية الطعام بيننا (مرسلاً له)، أما الشماتة، فقد كانت (الرسالة) التي بيننا، وكان الحق معها في ذلك، لهذا لم أسألها السبب، أقصد لم أسألها لماذا ابتسمتِ؟! أو لنقل: لم أقل لها لماذا تبتسمين يا زوجتي العزيزة، هل في كلامي ما يضحك؟

ولكنها، ولسبب أعرفه جيداً، إذ إنها كزوجة محبة ومحترمة، كانت لا تخفي شيئاً عني، أجابت هي بنفسها عن سؤالي غير المعلن، أقصد سؤالي المغيب خلف نظراتي الاندهاشية، أو ربما فهمت هي - كما فهمت أنا دلالات ابتسامتها – دلالات نظرتي، عندما ابتسمت هي، أي إن التي كانت تقوم بدور الوسيط بيننا هي الإشارات (كودات)، (شفرات) تنتجها العيون والشفاه، لهذا سمعتها تقول، أقصد وأنا أتناول طعام العشاء، قالت: وإن لم أستطع- هكذا أكدت لي باستخدام ضمير المتكلم بكل وضوح - النهوض في الوقت المناسب، ماذا ستفعل أنت؟

وعندما لم أجبها، أو أنها قد وجدتني انظر إلى وجهها وكأنني أنظر في متاهة لا نهاية لها، تابعت القول: أقصد، كيف يمكنك النهوض مبكراً؟

كان سؤالاً وجيهاً، ما سألتني إياه كان وجيها، قلت مع نفسي، لاسيما أن هذه الليلة هي الليلة التي تسبق يوم العيد، وان فترة البث التلفزيوني ستستمر إلى وقت متأخر، ولما كان عليّ أن أنهض مبكراً، فإن لسؤالها وجاهة لا حد لها، خاصة وأن الوقت الذي يفصل بين هذه اللحظة وبين الضغط على زر جرس الباب الخارجي صباح غد – أقصد صباح يوم العيد – تعد بالساعات، والوقت هذا يتآكل بسرعة كما إن الطعام الذي أمامي هو الآخر يتآكل شيئاً فشيئاً من قبل فمي، إذ لم يكن أمامي متسع من الوقت لضبطه.

سألتها كغريق يبحث عن قشة في لجة البحر: أين ساعة التوقيت المنضدية؟

سحبت صينية الأكل من أمامي، بعد أن تأكدت من أنني قد انتهيت من تناول طعام العشاء، وببرودة، وكأن الأمر لا يعنيها بشيء، نعم، أكدت مع نفسي، إن الأمر لا يعنيها بشيء، قالت: إنها عاطلة.

إذن، فالاعتماد على النفس في هذه الحالة فضيلة، وأي فضيلة، هكذا قلت، أو لنقل، سمعت صوتاً داخلياً يهتف بمثل هذه الكلمات.

عندما عدت من غسل يدي، سمعتها تقول: لا تنسى أن تحلق ذقنك.

صحيح إنني نظرت إليها لأشكرها على هذه الملاحظة المهمة جداً، إلّا إنني لم أقل لها شيئاً على الرغم من معرفتي أنها قد فهمت دلالات نظراتي تلك، لاسيما إن (الموسى) لم يجد طريقه إلى شعر وجهي منذ ثلاثة أيام بالضبط، وتأكيداً لقولها، أقصد تأكيداً على تلك الملاحظة الهامة التي نبهتني إليها، قلت لها: وعليّ أن أستحم أيضاً.

تركتها والابتسامة (الماكرة) ما زالت تتجدد على شفتيها بين لحظة وأخرى.

غدا – قلت مع نفس وأنا أضع جسدي على الفراش – لن أسمع جرس الباب، أو قلت: سوف لا أسمح لجرس الباب أن يسبقني في النهوض، عندها امتلأت نفسي بالراحة، انتعشت روحي بيقين لم أعرف منشأه.

هكذا أويت إلى فراشي في ساعة متأخرة من هذه الليلة، أقصد قبل دقائق بالضبط، وضعت جسدي على الفراش لأنام، فيما كانت زوجتي والأولاد يشاهدون برامج خاصة بفرحة قدوم العيد في التلفزيون، هل كان ذلك نكاية بي، لأن الأمر لا يعنيهم؟ أو لكي تؤكد لي – لا من خلال حوار يدور بيننا – إن الأمر هو بيدي، لم يقلقني ذلك، لأن الحق معها، أو لنقل إن مثل هذا الموقف هو حق لها، لأنها لم تكن معنية بالأمر الذي شغلني طيلة هذين اليومين، لأنه أمر رجولي.

أذكر أنني سألتها قبل أن أدخل غرفة النوم، أقصد قلت لها وأنا في طريقي إلى غرفة النوم: هل جارنا أبا عماد في بيته؟

لكي يكون جوابها لي دقيقاً، أعدت السؤال بصيغة أخرى، فقلت:

هل سيكون في بيته صبيحة يوم غد؟

لم أنتظر الجواب منها لأنني أعرف مسبقا أن لا إجابة لديها، وعلى الرغم من ذلك، تجددت تلك الابتسامة (الماكرة الساخرة) على شفتيها، عندها، وأنا أضع جسمي المتعب على الفراش، أحسست إن الابتسامة تلك قد أرسلت سكاكينها الحادة داخل بطني وراحت تجوس أحشاءها وكأنها تبحث عن شيء ما.

كنت أنتظر إغفاءة عينيّ، وكما قلت قبل قليل سوف لا أسمح لجرس الباب أن يسبقني، لهذا ارتاحت نفسي، عندها انتظرت الإغفاءة المبكرة كي تكتمل الحكمة التي تعلمناها

منذ الصغر (نم مبكراً لتستيقظ مبكراً)، أو (نم مبكراً لتنهض مبكراً).

كان الفراش بركاناً يغلي بالنار، على الرغم من أن جهاز التكييف يعمل بكفاءة عالية إلّا أنني أحسست – وربما كان ذلك إحساسا لا إراديا – بأن الفراش يشع حرارة، وإن قماشه القطني يلتهب، جمراً متقداً، أو لنقل إنه صفيحة معدنية ساخنة.

كانت الحرارة تنفذ من خلال دشداشتي إلى جلدي، ومن خلال جلدي كانت عظامي تلتهب، عندها رحت أتقلب على الفراش، فيما جهاز التلفزيون يبث أغانيه احتفاءً بمقدم العيد، وزوجتي ما زالت جالسة والأطفال، وكأن الأمر لا يعنيها، حقيقة إن الأمر لا يعنيها، أكدت مع نفسي.

الوقت يجري بطيئاً، وفي الوقت نفسه كانت المسافة الزمنية التي تفصلني عن الصباح تتآكل بسرعة جداً مما تستدعيني إلى أن أغفو مبكراً، أو على الأقل أن أنام مباشرة، إلّا أن تقلباتي المستمرة على الفراش وقفت حائلاً بين بطء جريان الزمن وسرعته، لكنني – وهذا ما تنبهت له هذه اللحظة- لا أعرف كيف أن إذنيّ لم تعودا تسمعان صوت جهاز التلفزيون، ولا أعرف إن كان الصوت قد انقطع بسبب إطفاء الجهاز أم لسبب آخر؟

انقطع صوت التلفزيون، سكن الصوت في آذنيّ، وبالكاد كنت أسمع صوت زوجتي وهي تنبه الأولاد إلى إحكام أغطيتهم، خاصة أنهم ينامون أمام جهاز التكييف في الغرفة الثانية، ومن خلال لسعات جمر الفراش– لا أعرف إن كان الفراش بهده الحرارة القاتلة في الليالي السابقة أم لا- انتبهت إلى زوجتي تمد جسدها إلى جانبي على الفراش وهي تغطي جسدها بغطاء خفيف، فيما الحرارة ما زالت تلسع جلدي

لتنفذ إلى عظامي حتى أحسست برائحة شواء يحترق مما دفعني إلى التقلب.

كان الوقت يمر سريعاً، لم أنظر إلى ساعتي، إلّا أنني من خلال ستارة الشباك رأيت لون الفضاء الخارجي يتحول شيئاً فشيئاً إلى اللون الفضي، فيما كانت عيناي منفتحتين على وسعهما لتريا هذا التحول.

لأول مرة، وبعد سنوات عديدة أرى مثل هذا التحول، كم هو جميل أن يتبدل اللون الأسود، أقصد أن يتلاشى شيئاً فشيئاً ليحل محله اللون الفضي، لكن أجفان عينيّ كانت – بعد لحظات من التحديق في تلك التحولات التي تحدث أمامي في الفضاء، أي تبدد لون وتكوين لون – كانت بالكاد تنفتحان، فيما الحرارة، أو لنقل إحساسي بسخونة الفراش، قد تلاشت شيئاً فشيئاً مع تلاشي لون الفضاء، وراح جسدي يهدأ ليستكين على فراشه.

لا أعرف كم كانت الساعة عندما انتبهت على صوت زوجتي وهي تقول: انهض، جرس الباب يرنّ.

إنها الجملة نفسها التي تعودت سماعها من قبل، عند أول يوم من أيام كل عيد، وقتها - أي في تلك الأوقات التي أسمع فيها تلك الجملة – وكذلك الآن، كنت أنهض مسرعاً، كانت زوجتي تقول لي: انهض جرس الباب يرنّ.

كنت أنهض مسرعاً، وكالعادة، أعني كما في كل مرة، أي في الساعات الأولى من أول أيام العيد، كل عيد، كنت بالكاد أبلل وجهي بقطرات من الماء، وكنت في كل مرة، أي وأنا في طريقي إلى الباب في الساعات الأولى من أول يوم كل عيد، كنت أمسح وجهي بالمنشفة، وفي كل مرة، عندما يرنّ الجرس في أول ساعات اليوم الأول من العيد، منذ أن سكنت وعائلتي هذه الدار قبل أكثر من ثلاث سنوات، كنت أفتح الباب الحديدي للدار، وكنت، وها أنا قد فعلتها قبل

لحظات عندما فتحت الباب، وجدته واقفاً أمامي، تراءى لي كأنه طاووساً ينشر جناحيه الملونتين، أقصد كما كنت في أول مرة أجده أمامي، أمامي بالضبط، بزيه العربي المعهود، ملامح وجهه نفسها، والرائحة الزكية تنبعث منه، وقد حلق ذقنه، وبنفس الابتسامة، و.

:- أيامك سعيدة، وكل عام وأنت بخير.

ومثل كل مرة، كنت – كما فعلت قبل لحظات – أرد عليه بارتباك: وأيامك سعيدة. وبين القبلات المتبادلة، كنت أقول له – إن شاء الله أستقبلك حاجاً.

ومثل كل مرة – وكما رد عليّ قبل لحظات – كان يرد عليّ وابتسامة شماتة على شفتيه، وحسٌ بالانتصار، وهكذا كنت أستقبل تلك الابتسامة، الابتسامة التي رأيتها قبل لحظات على شفتيه، ابتسامة شماتة، ومن بين الشفتين الشامتتين وبتلك الابتسامة سمعته – مثل كل مرة – يقول: إن شاء الله معاً.

وكنت أطلب منه – أقصد قد طلبت منه قبل لحظات وكما في كل مرة – أن (يشرّفنا) بالدخول إلى البيت، كان يعتذر، يعتذر لأنه سيزور الآخرين – أقصد الجيران - في بيوتهم ليقدم لهم كلمات التهنئة بمناسبة العيد السعيد، تلك التهاني المشفوعة بتلك الابتسامة، وقتها سألت نفسي: هل يعاني الآخرون – أقصد الجيران – من تلك الابتسامة؟

لم أجد لسؤالي جواباً، لأنني عندما أغلقت الباب – أقصد مثل كل مرة عندما أغلق الباب – كانت إذناي قد تشربتا بضحكته العالية، تساءلت: هل يضحك لأنه ...، ربما؟

وعندما كنت أعود إلى غرفتي – وها أنا أضع جسدي مرة أخرى على الفراش – كانت زوجتي هي الأخرى تضحك، هل تضحك لأنها كانت فرحة بالعيد أم أنها تضحك من ...؟

لم أسألها السبب، لكنها قالت – وكما كانت تقول لي في كل مرة، أقصد عندما أعود من ضحكته العالية تلك صبيحة كل أول يوم عيد – أسمعها تقول: وهكذا غلبك هذه المرة.

وتابعت ضحكتها، فيما أنا أتمدد على فراشي، خائباً، منكسراً، متوعداً إياه في العيد القادم. سمعتها تقول: هل كان عليك مثل كل مرة أن تستقبل تهانيه بالعيد بملابس النوم دون أن تفاجئه مرة لتسمعه أنت التهاني أمام باب داره؟

كانت ضحكتها العالية، عالية، عالية.

ناصرية ٢١ / ٥ / ١٩٩٤

***

(*) نشرت في جريدة "كواليس" الجزائرية يوم الخميس المصادف ١٩ / ٧ / ٢٠١٨.

"وكر الدبابير"(*)

في ظهيرة يوم تموزي قائظ، والشمس اعتلت كبد السماء وهي تبعث بنورها الأبيض المشرب بلون أصفر باهت، وبأشعتها الحارة كنار جهنم كما وصفت في الكتب، إلى الأرض وما عليها، فتتركها كقطعة صفيح ساخن، تحرك سلام، الفتى الأسمر والنحيل الجسم، تحت وهج هذه الظهيرة وهو ينز عرقاً دبقاً يسيل بين دشداشته وجلده الملموم على ما تبقى من لحم قليل في جسده الخاوي، الدشداشة التي حال لونها في حر هذا الصيف إلى لون ترابي، فيما فتح "زيقها" الأعلى الذي قلع ما فيه من "زرارات" صغيرة تلم وتغلق تلك الفتحة العلوية للدشداشة، وراحت "فردتيّ" نعاله الأسفنجي المتسخ تتدلى من على رقبته على صدره، وقد شدهما بحبل، فجعل منهما ككفتي ميزان.

سلام هذا يأتي كل يوم إلى هذه الأرض الجافة من طرف البستان الذي ينبض بالحياة من كل جوانبه سوى هذه المنطقة، حيث استحال لون أديمها إلى اللون الملحي، فيما وقفت فيها بقايا نخلة جافة، وراح وكر للدبابير يتدلى من على سعفة من سعفاتها الجافة كأنه كتلة لحمية نافرة على خد فتاة نضر، ليبحث عن جحر حيوان يفزعه بضربه بعصاه الخيزران.

انحنى سلام هذه المرة إلى الأرض الملحية وهو يبحث عن حجارة، أو صخرة صغيرة، أو أي شيء ليرمي به هذا الوكر الذي بات ساكنا، ساكتاً، لا صوت له، في ظهيرة بستان مزهو بخضرته لا يبعد عنه سوى مسافة قصيرة وهو

ينبض بالحياة، أصوات الطيور المغردة، المسرورة، المبتهجة وهي في ظل سعفات نخيله الكثيفة المتدلية منها أعذاق الرطب الأصفر الناضج.

فكر مع نفسه وردد بصوت مسموع: سألهو قليلا مع هذا الوكر، سأخرج الدبابير منه بالقوة، ستهرب بعيداً خارج البستان، سيكون كل شيء هادئاً وسليماً.

وجد حجارة صغيرة تركها جفاف الأرض تحت وهج الشمس، انفرجت أسارير وجهه، وما زال العرق ينز بكثرة من تحت دشداشته الكالحة اللون، نزل على خديه فشعر بحرارته، وذاق بشفتيه طعم ملحه، رفع الحجارة إلى الأعلى فرحاً، مبتهجاً في حر هذا اليوم التموزي. قال مع نفسه: "سأهجّج" الدبابير التي في هذا الوكر، دبابير لا فائدة منها وقد غادرتها الملكة، وخلى وكرها من العسل، والشمع.

طوح بيده في الفضاء الحار المتوهج الذي يملأ الكون، والحجارة الطينية ما زالت فيها، وبيد سمراء وقد انداف عليها تراب البستان الحار بعرق شمس الظهيرة هذه، رمى بالحجارة إلى الوكر. كانت إصابته موفقة، فاهتز فرحاً مسروراً بهذا الانجاز، أصاب الوكر في المنطقة التي يلتحم فيها مع نصل السعفة الحاملة له. تحرك من مكانه. انتظره ليسقط، لم يخرج منه دبوراً واحداً، تحرك يميناً وشمالاً في هذا الجو الوخيم الذي يفتقد لأية نسمة هواء، وعلى حين غفلة سقط، سقط على الأرض كتلة واحدة، تهشم كلياً مخلفاً شظايا من الطين اليابس وأعواد التبن، وأغصان صغيرة يابسة.

كان سلام ينتظر ما هو أكثر من هذا، إنه ينتظر فرار الدبابير الساكنة فيه، انتظر، وبعد فترة انتظار شعر بها كأن دهراً قد مضى عليه وهو ينتظر، اقترب من الشظايا التي تناثرت على الأرض، خرج دبور واحد وطار إلى الأعلى،

اختفى في الأفق الشمسي المتوهج، تبعه بعد لحظات دبور آخر، وآخر، ورابع، ثم سكن كل شيء.

اختفت الدبابير في الأفق المتوهج الساكن، راح يقلب الشظايا، لم يجد أي دبور فيها، حتى صوت أزيزها الخافت اختفى، ومازالت الشمس ترسل نورها وأشعتها وتوزعهما على الأرض، والعرق يتصبب من جسمه الأسمر النحيل، وغدا لون دشداشته باهتاً، ونعليه مازالا يتدليان على صدره.

تحرك قليلا وهو جذلاً، فرحاً بما عمل. سمع صوت أزيز في أحد صيوانات إذنه، تحركت يديه لا إراديا لتنش صاحب هذا الصوت. كان الأزيز يحوم في كل جانب من رأسه، لاح له دبوراً كبيراً أبيض فاتح اللون، بعد فترة اختفى الأزيز في جهة الغرب، فرح سلام في سره، والشمس ما زالت أشعتها تحرق أديم الأرض فتحيله إلى سبخة لا فائدة منه. فكر مع نفسه، قال: سأعود إلى البستان، لقد طردت الدبابير. سار جذلاً وهو يقفز قفزات غير منتظمة، وقبل أن يصل إلى أول ظل نخلة وافرة بأعذاق رطبها الأصفر، سمع دوياً هائلاً قادماً من غرب المكان الواقف فيه، أزيزاً عالي الصوت يملأ الفضاء الذي على جنبيه، ولاح له من بعيد سرب من الدبابير وهو يسرع نحوه وقد سد الفضاء أمام عينيه. كثرت الدبابير المتجهة نحوه، هاج بعضها وماج، تكاثر صوت الأزيز، امتلأ الفضاء الحار المتوهج بأشعة الشمس بالدبابير التي لا لون لها، كانت أسراب الدبابير الكثيرة تتوافد باتجاهه.

أسراب من الدبابير تتوافد إلى البقعة التي يقف عليها، وهي الحدود الفاصلة بين خضرة البستان النابض بالحياة والأرض الملحية الجرداء التي تقف فيها تلك النخلة الخاوية، المتخشبة، ووكر الدبابير الذي تخلص منه للتو.

انهالت عليه أسراب الدبابير في هجمات متوالية، سرب ينقض عليه ويوخزه ويطير بعيداً عنه، ليأتي سرب آخر يهجم عليه بقوة، فيما الأزيز يتصاعد أكثر حدة.

جلس على الأرض محاولاً حماية نفسه من وخز الدبابير بيديه التي امتلأت بمساحات حمراء من آثار الوخز، لم يندّ منه أي صوت، أو نأمة حتى، كتم صوته، كان همه الرئيس حماية جسده من هذا الوخز المؤلم الذي يشعر به كأنه النار التي أجّجت في جسده الأسمر النحيل، حاول، وحاول، خارت قواه أمام هذا الوخز المؤلم الذي تكاثر آلاف المرات، فيما الدبابير تتوافد عليه بأسراب امتلأت صفحة السماء بها، فتغير لونها الأبيض المصفر الباهت إلى لون الدبابير.

سحب دشداشته المغسولة بالعرق وملح الأرض وترابها إلى أعلى رأسه، إذ أدخل رأسه في زيقها المفتوح وسده بيديه.

ما زالت أسراب الدبابير تنقض عليه كالصاعقة، والوخز المؤلم ما زال على أشده، غطى رأسه بدشداشته، أحكم جيداً إغلاقها.

تحركت يديه في داخل أكمام الدشداشة الطويلة التي تيبّس عليها العرق والملح والتراب، ضم قدميه إلى بعضهما تحت الدشداشة، تكور على جسمه ملفوفا بالدشداشة المعرّقة، خفّ الأزيز، قلت هجمات الدبابير، إلّا أنها لم تنته. ما زال سلام كاتما صوته وهو يحاول تجنب آخر وخزات هذه الدبابير اللعينة. ظل هكذا وقتاً طويلاً. لا يعرف كم مر عليه من الوقت منذ انقطع هجوم الدبابير النشطة، لم يبق ألّا الدبابير المسنة والكبيرة وهي توخزه بتكاسل أحس به أنه أقل ألما مما سبق. فتح قليلاً الفتحة العلوية لدشداشته أمام عينيه، لمح بعض الدبابير تهجم عليه بتكاسل وهي قادمة من شرق المكان الذي يقف فيه، فيما انسحبت الدبابير المسنة والكبيرة

من المكان، ظلت الدبابير القادمة من الشرق وهي منتظمة في أسراب قليلة تهجم عليه، لم تفلح بعمل مؤثر حيال دشداشته التي تصلب عليها العرق والملح والتراب، إلا أنها ما زالت تحاول بوخزات حادة أن تقضي على سلام، فيما كان الدبور الكبير، الدبور الأبيض اللون، مازال يحوم حول الكومة الملتفة بدشداشتها الكالحة اللون وهي تراقب عمل الدبابير القادمة من الشرق، من داخل البستان.

***

(*) نشرت في " ثقافية " جريدة (طريق الشعب) بتاريخ ١١ /٥/ ٢٠١٦.

"يوميات قدح بلاستيكي شفاف"(*)

في لحظة من الزمن ولدتُ هكذا، قدح بلاستيكي شفاف من مواد لا أعرف كنهها. خرجت من آلة حديدية كبيرة كما أنا الآن على شكل قدح صغير وشفاف. أحاطوني من جوانبيّ بكتابات لا أفهمها. نقلوني مع الأقداح الباقية إلى داخل آلات ضخمة. الجو بارد ورطب هنا في هذه القاعة الكبيرة. العمال الواقفون قرب هذه الآلات يضعون كمامات بيضاء على إنوفهم وأفواههم. صُبّ شيء سائل شفاف كجسمي يقال أنه الماء في داخلي. أغلقوا بإحكام الفتحة الموجودة في رأسي بغطاء ملون.

هكذا صنعتني الآلات من أشياء لا أعرفها، وملأتني بشيء يأخذ شكل ولون الإناء الذي يوضع فيه. إنها وضعت في داخلي ما أرادوه هم. غطت – هذه الآلات - رأسي بشيء ما حسب ما يريدون. أحاطت جسمي كذلك بكتابات حسبما رغبوا. فأنا لا علاقة لي بكل هذا. واجبي أن أرضخ لإرادتهم وأطيعهم والآلات تعمل ما يريدون.

انتقلت بآلات كبيرة، وسيارات متنوعة إلى أماكن باردة بعد أن وضعوني في كارتون من الورق المقوى. بَرَد ما بداخلي كثيراً. وصلت إلى يد شخص لا أعرف مَن، فضّ غطائي وسكب ما امتلأت به في فمه ثم رماني في عرض الشارع.

رحت أتدحرج لعدة مرات حتى استقر بي المقام في منتصف الشارع تحت حر ظهيرة تموزية. كدت أذوب من الحر وقد اتسخت كثيراً.

جاءت سيارة مسرعة فداستني، وأخري، وثالثة، واستمر سحقي. تكومت على نفسي. ثم أصبحت شيئاً مسطحاً. ذهب بريقي الأول الشفاف، وهيئتي المكعبة الأولى، وانمحى ما كان عليّ من كتابات لا أعرفها، وراحت السيارات والناس والحيوانات تدوسني الواحد بعد الآخر حتى أصبحت أكثر تسطحاً، وامتلأت بالأوساخ والقاذورات.

كان كل شيء يمشي أو يركض من أشخاص وحيوانات وسيارات تدوسني بإقدامها وحوافرها وعجلاتها حتى أصبحت أكثر تسطحاً، وتغيرت هيأتي ولوني من كثرة الأوساخ والقاذورات.

بعد يوم قضيته في الشارع حيث تدوسني الأقدام والحوافر وعجلات السيارات، مر شاب بيده شيء يحركني من مكان لآخر، وأخذ يجمع كل شيء في الشارع ومن ضمنها أنا، تجمعنا سوية أنا ومن كان على أرض الشارع من أوساخ وأزبال وقاذورات، وأشياء أخرى في مكان جنب الشارع. كانت الرائحة نتنة جداً ولا تطاق إلّا أن ما صبّرني على نتانة هذه الكومة من القاذورات والأوساخ هو أنني قد ارتحت من دوس عجلات السيارات والأقدام وحوافر الحيوانات، حتى أنه في مرة ظلت عجلة سيارة كبيرة وثقيلة واقفة وهي تدوسني أكثر من ساعة.

حملني الشاب في عربة حديدية صغيرة ورماني في كومة أزبال كبيرة فكانت الرائحة أنتن من الأولى، تدحرجت بعيداً عن الكومة الكبيرة حيث تخلصت من قوة نفاذ الرائحة ألنتنة. بقيت هكذا كل الوقت ما بعد الظهر إلى المساء حيث حركتني بقوة ريح هبّت على هذه الكومة من الأزبال إلى مسافة أمتار حتى أعادني شاب آخر بمكنسته إلى الكومة الكبيرة ثم حملني مع بقية الأزبال إلى شاحنة كبيرة خاصة بجمع ونقل الأزبال. كانت الرائحة ألنتنة نفاذة وقوية، وكنا متكومين على بعضنا.

وبعد فترة زمنية طويلة وصلنا إلى مكان لا أعرف أين يقع. فتح الباب الخلفي للشاحنة فقذفنا قذفاً منها، لقد رموني خارج المدينة في كومة أزبال أكبر من التي كنت فيها قبل قليل.

كانت الرائحة قوية جداً، نتنة ونفاذة. وكان هناك دخان أسود يخرج من بعض مناطق هذه الكومة الكبيرة، إذ تأججت في بعض جوانبها النيران، فأخذت تحترق لينبعث الدخان الأسود، فأظلم الجو، وانبعثت رائحة "الشعواط" قوية، ونتنة، ونفاذة بحيث ملأت أجواء المنطقة.

بقيت ليلة واحدة هنا. كاد جسمي المسطح أن ينسى التحرك من مكان إلى آخر. نحن لا نتنفس إلّا إننا قد امتلأنا بالدخان ورائحة "الشعواط"[1]، وكادت النيران تصل إليّ، إلّا أن صباح اليوم الثاني قد انبلج وما زال السواد يملأ الجو المحيط بالكومة، حيث جاء ناس كثيرون وأخذوا يبحثون في كومة الأزبال والقمامة هذه عن أشياء لا أعرفها فعزلوا ما تحويه الكومة من مواد زجاجية وبلاستيكية وغير ذلك في أكوام صغيرة أخرى حتى انتهى النهار. حملونا بعربات تجرها الخيول إلى بيوت بسيطة ورمونا على الأرض على شكل مجاميع. كانت الأجواء أقل نتانة من السابق، وليس فيها دخان أو رائحة "الشعواط".

بقينا هناك لأكثر من إسبوع حتى جاء شخص سمين جداً وأخذ يساوم شاب آخر عن سعر كومتنا، وبعد الاتفاق حملونا بسيارات حمل صغيرة إلى بناية فيها أحواض ماء، ومكائن كبيرة، فرمونا في حوض ماء ورحنا ننتقل من حوض إلى آخر حتى نظفنا كلياً، فرحت بوضعي هذا. لقد تنظفت وأصبحت أكثر شفافية مما سبق، ولكن مازلت مسطحاً. أحاطني هواء نقياً، ورائحة تختلف عن رائحة أكوام الزبالة

(١) الشعواط: رائحة حريق المواد المستعملة النفاذة.

والقمامة ورائحة الشعواط النفاذة. الآن عدتّ كالأول إلّا أنني ما زلت مسطحاً وليس كما جئت إلى هذه الدنيا على شكل قدح.

في صبيحة اليوم الثاني أدخلوني أنا وبقية من معي إلى ماكنة كبيرة. في هذا الماكنة ضاعت كل أحلامي التي كنت أمنّي النفس بتحقيقها، أن أبقى هكذا نظيفاً، مرتاحاً تحت هواء منعش. عصرتني آلة كبيرة بكل قوة، ثم راحت سكاكينها تقطّني إلى أشلاء صغيرة، حتى بتّ لا أعرف من أكون. واختلطت أشلائي مع أشلاء الآخرين، أصبحنا قطع بلاستيكية صغيرة، وضاع شكلي الذي هو كالقدح الشفاف.

وهكذا عدت إلى شكلي الذي كان قبل أن أكون قدحاً شفافاً، أجزاء يسمونها حُبيبات بلاستيكية شفافة، ملأوا أكياساً كثيرة منها، ونقلوها ونحن بداخلها إلى مكان يسمونه المخزن، وكانت رائحة المخزن هي رائحتنا نحن حُبيبات البلاستك.

سمعت وأنا أقبع بين الملايين من إخوتي الحُبيبات البلاستيكية إحدى هذه الحبيبات تقول للأخرى الملاصقة لها: لقد أعادوني من كيس نفايات إلى حالتي الأولى قبل أن أدخل تلك الآلات الكبيرة. ردّت عليها الأخرى قائلة: وأنا كذلك، لقد كنت سابقاً إناء يوضع فيه الطعام فيأكل مني الناس، بعدها رميت أنا والطعام الذي يملأني إلى شخص آخر فسقطت على الأرض وانفطر جسمي، فقذفوا بي إلى مكب النفايات والأزبال حتى وصلت إلى هنا. فعادت الأولى قائلة: لقد تحملنا الكثير من الضغط والرائحة الكريهة حتى وصلنا إلى هنا. عندها كلمتهم الحُبيبة التي كانت قدح شفاف يُملأ بالماء: وأنا أيضاً تحملت الكثير من الآلام والروائح ألنتنة، ورائحة "الشعواط" حتى وصلت إلى هنا ونظفوني، وقطعوني إلى جزيئات صغيرة لا نعرف ماذا سيفعل بنا من جديد.

وهي تتجاذب أطراف الحديث مع بعض الحُبيبات الأخرى، سمعت كلام شخص أنسي قريباً منها. قال أحد حراس المخزن وهو يحتسي الشاي لآخر: والله، كلما أرى هذه النفايات كيف يعاد تدويرها أضحك من كل قلبي.

سأله الشخص الآخر: وماذا في ذلك؟

قال له الحارس الذي يحتسي الشاي: أتذكر بعض الناس الفاسدين وغير نظيفي الذمّة كيف تدوّرهم مجموعاتهم. فالفاسد يصبح نظيفاً من كل شائبة. والسارق يعد أميناً. والناهب يعتبر صاحب مشروع إنساني. والقاتل يكون بريئاً. هههههه التدوير الصحيح هو هذا الذي يتم هنا مع البلاستك، نافع ومفيد، أما هناك فلا.

رد عليه الآخر قائلاً: في كلا الحالتين يتم الشيء نفسه.

فقال الأول: في البلاستك تكون القاذورات والأوساخ آتية من الغير وليس ذنب البلاستك، أما عند الناس فهي من أنفسهم وسلوكم وأخلاقهم، إنها من أعمال أيديهم.

قالت الحُبيبة البلاستيكية مع نفسها: نعم لم يكن لنا يد في ما تحملناه من قمامة وقاذورات وأوساخ، وسحق على رؤوسنا، والعيش في جو ذي رائحة نتنة كريهة، ودخان أسود ورائحة "الشعواط". آه، من أفعال الغير.

***

(*) نشرت في جريدة طريق الشعب يوم ٢٠١٨/٥/١٤، وفي جريدة كواليس الجزائرية يوم ٢٠١٨/٥/١٦.

"التابوت"(*)

كانت بعض المياه قد كوّنت بركاً صغيرة موحلة، هنا، وهناك:

- أرجوك، أرجوك.

انفلت جسدي من سلسلة الخضّات الشديدة التي جعلته ينتفض كالملدوغ.

- أخي هل أنت مريض؟

شبح قد سد الطريق أمامي داخل هذا التجويف الفضائي المظلم، وتحت رذاذ المطر المتساقط.

- ها، لا، إي.

تكاسلت الكلمات وراء شفتيّ، فيما كان رأسي ممتلئاً بكلام محسن (وماذا بعد!) وصوت الشبح المغسول برذاذ المطر وهو يقف أمامي يقول:

- أرجو أن تنتبه جيداً لطريقك، كدت تسقطني في هذا الوحل القذر.

الوحل؟؟ وماذا أقول أنا؟ ها أنا أعيش منذ أشهر وكل ما حولي وحل وقذارة، فيما الآخرون ينظرون إليَ بشماتة، والبسمة التي لا أعرف لها لوناً ترتسم على شفاههم، والكلمات تنتقل بينهم كهمس المبغضين، أو المحبين، آه، المحبين.

- وداد.

- نعم.

كان صوتها يحمل بين نبراته برودة الشتاء، فيما وجهها بدت عليه علامات من الاندهاش الحاد:

- حبنا.

قالت باستخفاف:

- أي حب تقصد؟!

سؤال غريب لم أسمعه من قبل يسيل ما بين هاتين الشفتين:

- أقصد، حبي لك، وحبك لي.

أشاحت بوجهها عني. أحسست أن وجهي قد تشوه كلياً. هل أصبحت قرداً، هل مسخت إلى هيئة غراب؟

تلمست وجهي، وخزَني المنقار المعقوف، آه، إنه أنف قرد أسود قذر، ها هو الشعر القبيح يملأ صفحة جلدي كله.

وداد كانت هي الأخرى قد تركتني "مشتولاً" وحيداً، فيما ظلت علامة استفهام كبيرة مرسومة في مكانها الذي غادرته بالضبط.

- أي مكان تقصد؟

سأل الرجل الذي فتح الباب أمامي وهو يمسح عن وجهه بلل الرذاذ. قلت متلعثماً:

- أقصد بيت... .

وبسخرية مبللة بماء المطر، قال الرجل:

- هل هذا وقت للبحث عن مكان لا تعرف عنواناً له، ألا تشعر بالمطر في هذا الظلام الأسود؟ لماذا لا تبحث عن مقصدك في وضح النهار؟ أنا آسف، ثم أشاح بوجهه عني.

أغلق الباب، وقد بدت صفحة السماء فوق رأسي سوداء مثل سبورة نظيفة بعد أن تساقطت النجوم الذهبية من أماكنها. اختفت كما اختفت الحقيقة التي أغلق الباب دونها، هل أحسّ بالخوف مني؟ ولكن ما ذنبي أنا؟ كلهم أغلقوا الباب من أمامي، أقصد أمام الحقيقة، في الليل والنهار، تآمروا ضدي. سألت نفسي للمرة الألف: أيمكن أن يكون هناك إتفاق فيما بينهم ضدي؟ كيف تم ذلك؟

- كيف؟ كيف؟

امتلأ فمي بالوحل، واصطبغ وجهي بلون أسود. (اللعنة، كيف حدث هذا؟!).

امتلأت خياشيمي المبللة برائحة الطين. (اللعنة عليهم جميعاً). سقطتّ في بركة الماء المتجمع. زلت قدمي. دُفعت من الخلف. (إنهم يدفعون بي إلى الهاوية). سُحبت إلى الأمام. (**لعنة الله عليهم، سيضعونني في موقف أفعل فيه شيئاً سيندمون عليه حقاً**). نهضت دون أن ألتفت إلى أية جهة كانت. (**سأريهم كيف أصل إلى ما أريد**). لا شيء أمامي سوى رذاذ المطر النازل في ظلمة هذا الليل الأسود، وريح بارد خفيف يهب من جهة لم أحددها بعد. (**سأعرف طريقي إليها جيداً**). تلمضّت داخل فمي. (**سألتقيها حتماً**). سحقت أسناني بعض حبيبات الرمل التي لم تذب في الماء الموحل بعد. مسحت فمي بكُم سترتي. (**ستعرفني جيداً**).

- لم يقع أي شيء.

هكذا قال محسن. نطق بعد أكثر من ساعة من الحديث مع أحمد، فارتسم على وجهي لون الدهشة المخذول.

- أصادق أنت فيما تقول؟!

تركت أحمد في مكانه، وتوجهت صوب محسن، أبو الهول الذي تكلم بعد هذا التعب وتيبس الحبال الصوتية في حنجرتي:

- نعم، لم يحدث أي شيء.

سألته بعد أن أحسست إن نافورة من الدم الحار ستنبثق من منطقة ما من رأسي الذي أصبح مثل كرة أسفنجية.

- وماجد!، أتنكر إنك سمعت ما قاله أمامك قبل أيام؟

قال دون أن ينظر إليّ:

- وماذا قال؟

لم يبق في دماغي خلية واحدة لم تفرغ شعيراتها الدموية من ذلك السائل الأحمر الذي أخذت مراوغتهم تفسده. صرخت مندهشا:

- ماذا قال؟ ها، تسألني أنا؟!

ببرودة فجة، وكأن الأمر لا يعنيه، قال:

- نعم، ماذا قال؟

لم يقل شيئاً. صحيح أن جميل لم يتفوه بشيء أمامي أو أمامهم، كما سمعت، لكنني قرأت في نظراته الكثير، هل تآمر هو معهم ضدي، أم أنه آثر أن لا يدخل نفسه في قضية لا يعرف مبتدأها من خبرها.

- صدقني لا أعرف عمّاذا تتحدث؟

قالها جميل وكأنه قد دهش، وبوغت عند سؤالي له:

- ولكنك حتماً تعرف ذلك جيداً، أو على الأقل.

لم يبق سوى القليل، حتماً سأصل إلى دارها، سأصل حتى لو سبحت في هذا الوحل، لو أطفئت أنوار الشارع كلها، وتزلزلت الأرض بمطر السماء. (**ستخبرني الحقيقة**).

سأعرّفها بنفسي جيداً.

أحسست وكأن نبعاً من ماء دافئ منعش قد جدد الحياة في نفسي تحت رذاذ هذا المطر الذي امتزج بريح بارد:

- ارفع صوتك، لقد انطفأ النور في عينيّ. (**هكذا ستقول لي**). ها هي أمامي بطولها الفارع و(الشامة)[1] السوداء الجميلة ما زالت تحمي صفحة خدها الأيسر بحجمها السابق. حتماً ستقف أمامي، لا، سندخل البيت سوية، ستقبّلني على خدي كما كانت تفعل فيما سبق، سأرى بين شفتيها بريق أسنانها الناصع البياض، وقد انفرج من منتصفه قليلاً. حتما أن سر جمالها في هذه الفتحة التي تفصل ما بين أسنانها

(١) الخال.

الأمامية. سأجلس قريباً منها. ستمدّ(**مدّت**) يدها الناعمة (**الخشنة**) على صفحة وجهي. ستتنهّد (**تنهّدت**):

- آه، إنك مبتل، أصبَغَتَ وجهك بالفلفل الأصفر؟

ستحكي لي القصة كلها. منذ سنوات طوال لم أسمع لها صوتاً، ولم يرتسم وجهها في سواد عينيّ. (ستعرفني حتماً). عندها ستذكر لي الحكاية:

- إسمع يا بني.

نهضت تتلمس طريقها. (**حتماً أنها ستنهض**). على الضوء الخابي للفانوس. (**بالتأكيد إنها لا تحتاج إليه كما كانت سابقاً**):

- إلى أين؟

سألتها.(**سأسألها حتماً**).

سنشرب الشاي الحار سوية. أعرف إنك، الآن، تختض من البرد، إن الثياب المبتلة. (**ستقول لي**). تجلب المرض إلى الجسد، كما تجلب الساق الحافية الحمى. خذ لك "دشداشة" من هذا "الكنتور"[1]. (**ستخرج معي وتقول**) لا تستحي، ها أنك ترى الظلمة تملأ الغرفة منذ زمن، لقد حملتك بين يدي هاتين، وكنت أناغيك بـ...، أنّتْ في إذني أصوات ناعمة متناغمة، ربما سقطت بعض الأواني المعدنية.

ريح تصفر، جرس باب.

لكنني لم آت لشرب الشاي.

انفتح الباب أمامي عن امرأة لم أتبين عمرها، سمعتها تقول باندهاش:

- ماذا تقول؟

(١) الكنتور هو خزانة الملابس الخشبية.

كان وجهها يطفح بنور الشباب، حمرة خديها إلتمعت تحت نثيث المطر، و(الشامة) السوداء تحرس هذا الخد الأسيل بتحدٍ أزلي، سمعت صوتها ينادي من في البيت.

- رجل يسأل عنـ... .

وضاع صوتها من وراء الباب الخشبي الذي دفعت ظلفته المفتوحة فأنغلق. ثم برز وجهها مرة أخرى فأضاء المكان بعد أن انفرجت شفتاها عن صف من الأسنان الجميلة. أرنبة جميلة أمامي.

- آسف هل هي قريبتك؟

(ربما كانت قريبتي، أعتقد أنني كنت أدعوها جدتي، إنها، لا، لا أعرف نوع القرابة التي بيننا، أو صلتها بي، وبعائلتي، المهم أنني أرغب برؤيتها).

أجبت وأنا مأخوذ بهذا الجمال:

- نعم إنها قريبتي.

- وماذا تريد منها؟

مسحت البلل البارد عن صفحة وجهي براحة يدي. كان صوتها يذكّرني بصوت سمعته يقص علينا الحكايات قبل سنين.

- الحقيقة!

تغيّر لون وجهها. انسحبت هالة النور من صفحته. حتما إن خديها قد خليا من كل قطرة دم حمراء. شعرت بإرتعاشة جسدها، فيما كنت...:

- أنا؟!

اختض غارقاً في هذا البرد الصقيعي.

- ألم يخبروك عنها؟ (قالت)

تساءلت: عن ماذا يخبروني؟

قالت:

لم أسمع ما قالته. (**وحتماً سوف لن أصدق ذلك**). هبّت ريح محملة برذاذ المطر فغسلت الكلمة التي نطقت بها من على صفحة الظلام الفاصلة بين شفتيها وإذنيّ.

بدا لي سواد الليل نظيفاً دون أية قذارة.

- ألم تقل أنك لم تأت لشرب الشاي؟

سألتني من بين شفتين رسمتا ابتسامة صغيرة شعرت بما تحمله من مكر.

قلت:

- لكنني لم أشرب الشاي منذ الصباح، لم أذق طعمه حتى.

- لكننا لا نشرب الشاي بعد منتصف الليل.

تساءلت:

- والدشداشة؟

قالت باستغراب:

- أي (كنتور) تقصد.

- الحقيقة.

انغلق الباب أمام وجهي، بعد لحظة قصيرة، (بين رمشة عين وإنتباهتها) سمعت صريره مرة أخرى، إنداح خيط من نور على جسدي المتصلب في هذا الظلام الكوني، انتفخ خيط النور، تضخم، أصبح بحجم باب كبيرة، ثم انفجر عن كرة ظلام، شممت رائحة الكافور، أظلمت فتحة الباب(هل ماتت؟). عندها إنبجس عنها تابوتا كبيرا محمولا على أيدٍ كثيرة. اصطدم وجهي بخشبه البارد. اندفعت بقوة رجل إلى خارج الساحة التي تحرك فيها التابوت. رأيت من خلل الظلام ورذاذ المطر البارد ملامح وجوه شاهدتها في مكان ما.

صرخت:

- لقد ماتت الـ... . وسكت كل شيء فيَّ، ومن حولي.

كانت وداد تصرخ، فيما صاحبة الشامة السوداء تخمش خديها نادبة. وهناك، خلف التابوت المتحرك، سار محسن وأحمد وماجد وقد ارتسم على وجوههم حزن خادع معجون بالشماتة، ونظرات أحسست بها تنغرز في لحم جسدي الذي أخذ يضمحل شيئاً فشيئاً.

***

(*) نشرت في جريدة بابل - ٨/ك١/١٩٩٤.

"الكرسي المتحرك"(*)

: موافق.

: --------.

لم تكن الكلمة التي نطق بها الآن - وبالضبط في هذه اللحظة - **(أقصد لحظة نطقي لتلك الكلمة)** سوى السحر نفسه، إذ جعلت شقيقتي **(التي تصغرني بعامين)** طائراً يحلق في الفضاء الذي ينقسم إلى نصفين مضطربين بالفرح، أحدهما الذي ما زال **(هو، وكذلك أنا بالتأكيد)** يقبع فيه، وهو يجلس على الكرسي ذي العجلتين، والآخر، الذي ضاق بـ "عفاف"، **(عفاف شقيقتي)**، فأمتلأ بها، أو هي ملأته بساعديها المفروشين كجناحي طائر راح يرقص فرحاً، في فضاء هادئ جميل.

: موافق.

قالها **(هو، أقصد أنا بالضبط)** الجالس على الكرسي بمضض، **(كنت أنا أدفع به دفعاً لينطق تلك الكلمة التي كثيراً ما كنت أرغب في امرارها على حباله الصوتية التي يملكها هو دون سواه)** بعد تفكير طويل، إذ لم يكن **(هو وليس أنا، وبتأثير مني)** يرغب بأن يطول به **(أي أنا بالضبط)** التفكير أكثر مما يجب، وهو يجلس على كرسيه المتحرك أمام النافذة الزجاجية لغرفته **(هي غرفتي نفسها)** المطلة على الحديقة الخلفية لبيتـ **(نا)**. نعم، قالها **(وأنا كذلك)** بهدوء، أقصد همسـ **(نا)** معا: موافق.

عندها امتلأ جو الغرفة بعطر فواح لذيذ، تعرفت **(أنا وليس هو الذي نسيه)** عليه مباشرة **(وعلى استحياء منه)** بعد أن انفتحت ظلفتا باب الغرفة، وانطلق نورها هادئاً،

شفيفاً، من بين ثناياها محملاً بأريج أنفاسها، مترنماً **(هكذا سمعت)** بموسيقى دقات قلبها التي أخذت تتسارع وهي تتجاوب مع دقات قلبي الفرحة **(هي نفسها دقات قلبه المضطربة حياءً والذي لم يستطع السيطرة عليه)** فتصاعد النبض لقلبـ **(نا)**.

امتلأت الغرفة بالفرح، ابتسمت، هكذا شعرت **(بعد أن تركته هو وحياءه، وخوفه، واضطرابه)**، بكل آثاثها البسيط، حتى الكرسي المتحرك راح هو الآخر يهتز متراقصاً.

: موافق.

لم نكن أنا **(وهو وقتذاك)** وهي - بعد - قد اتفقنا على شيء ما. **(يتذكر هو، وكذلك أنا كل ذلك)**. كل الذي جرى بيننا عبارة عن عهد أقمناه معا فيما بيننا.

وقتذاك، **(قبل أن يجلس هو على الكرسي، أو أن أجعله أنا يجلس هكذا على الكرسي)**، قلت لها أن زواجنا سيتم بعد حصولها على الشهادة، أي بعد عام واحد، أما غير ذلك، فليس إلّا أشياء تافهة لا يمكن أن نعيرها اهتماماً، وهكذا سارت حياتنا كما خططنا لها عند أول لقاء لي معها.

أذكر حينها، أنني أخبرتها بحبي لها، لم أر على وجهها أية علامة تنبئ عن شيء ما، إلّا أنني **(كما أتذكر الآن)** رأيتها تنظر نحوي، أطالت النظر، كأنها تراني للمرة الأولى، عندها قلت لها، وكأني لا أريد أن أستفز مشاعرها:-

: لا أريد منك الإجابة الآن، فكري بالأمر.

لم ترفع عينيها عني.

أحسست **(وقتذاك كما أذكر)** بنظراتها تخترقني، فيما قلبي، كان قد ركب أمواج بحر هائج، اضطربت دقاته وهو يدفع بالدم إلى خلايا جسدي. همست من بين شفتين ورديتين **(كان هذا هو اللون الطبيعي لشفتيها)**:

: ومن قال لك أن ذلك يحتاج إلى تفكير طويل؟

تركتني واقفاً – كان ذلك اللقاء في أحد ممرات الكلية – في جو من الحيرة والاضطراب، أحسست بساقيّ يخذلانني، ودون أن أقول شيئاً لها، كانت هي قد وصلت إلى قاعة الدرس.

: موافق.

أكثر من مرة طلب من أبي أن يسمح لـ (سناء) **(هذا هو اسم حبيبتي التي حاول أن يجعلها تتركني)** برؤيته **(ورؤيتي أنا خاصة)**، أما أمي، فقد كانت قاسية معه، قالت له:-

: إنك تقتلها، كيف أصبحت قاسياً هكذا إلى هذه الدرجة. (كنت دائماً ألومه على هذه القسوة).

أما (عفاف) فقد أعادت إلى مسامعه **(مسامعي)** نفس اسطوانتها التي ملَ **(لم أمل أنا)** سماعها، وهي تعرف جيداً كرهه **(هو وليس أنا)** لتلك الاسطوانة التي أدارتها.

قالت: ألا تحبها؟

وقبل أن يجب بكلمة ما، راحت تلك الاسطوانة تقول:- إذا كان حبك لها قد تحول الآن إلى كراهية، فأخبرها أنت بنفسك. **(قررت أن أقتله إن أخبرها بذلك).** قل لها انك لا تريدها. **(إنها مجنونه هذه الأخت)**.

لم يقل شيئاً، سوى أن عجلات الكرسي الذي يجلس **(وأنا كذلك)** عليه ظلت ثابتة في مكانها، حتى إنها لم تدر.

واستمرت الاسطوانة تقذف بحممها البركانية في إذنيه:- ولكن قل لي، لماذا تعطي لنفسك **(نفسي أنا بالضبط)** الحق في رؤيتها خلسة من خلل فتحة باب الغرفة، أو من خلف درفة الشباك الذي أصبحت مدمناً على الجلوس بالقرب منه، ها، لماذا؟

لم يجرؤ **(هكذا رددت مع نفسي)** أحد منهم أن يقول الحقيقة، أعرف أنهم لا يريدون قولها أمامه. **(أنا مستعد أن أسمعها برحابة صدر)**، إلّا أن جدي **(جده كذلك)** وبعد نقاش

طويل معهم، دفع باب غرفته ودخل مهتاجاً، ولأول مرة أراه هكذا مضطرباً. **(كنت أنا سعيداً بهذا الاهتياج)**. صاح به **(بي)**: هل تستحي أيها المقاتل الشجاع من أوسمة البطولة التي تزين بها يدك، **(كانت يدي في السابق)**، وساقيك، **(كان ساقي في السابق)**، قل، هل تستحي منهما؟

امتلأ جو البيت بصوت نشيج انثوي، أعرفه، **(ويعرفه هو كذلك)** جيداً، كان النشيج متقطعاً. كانت أمي الوحيدة من بين النساء اللائي أعرفهن تبكي هكذا، هل كان كلام جدي موجها لها، أم له؟

ومن بين ذلك النشيج الحنون، قالت له بعد أن تركه **(وتركني)**، وأوسمته، **(الأوسمة التي حصلت عليها أنا)**، التي راح يذكّره بأن يفخر بها، **(أنا فخورة بها)**، أو كما اعتقد هو أن يستحي منها:

: حجي، ماذا تقول، لماذا تقسو عليه هكذا؟

أسكتها صوت أبي.

: دعية يخبره بالحقيقة. **(كنت فرحاً بهذا القول)**. الحقيقة التي لم نستطع نحن قولها أمامه.

هذه هي الحقيقة التي ظلت مختبئة تحت ألسنة أبيك وأمك وشقيقتك **(أبي وأمي وشقيقتي)** متوارية في حياء داخل تلافيف ذاكرتهم، وقد أحنوا ظهورهم عليها خوفاً من أن تنطلق أمامك، **(أمامي)**، على شكل كلمات، الحقيقة التي أزال جدي الصديد منها.

نغزها هذه اللحظة، لقد فجرها، قطعة زجاج تهشمت مرة واحدة، فراحت قطعها الصغيرة تنكّأ الجروح التي سببتها إصابتك، **(إصابتي)**، في المعارك، راحت تصرخ بصوت واحد، إنها الحقيقة التي كنت تخفي وجهك، **(ليس وجهي)**، عنها بحياء، تلوذ، **(أنت الذي تلوذ أما أنا فكنت أحاول ألا أفعل ذلك)**، بصمتك في ظلام الغرفة الدامس. كنت تقفل،

(نعم أنت الذي تقفل)، بابها، وشبابيكها، عندما يأتيك، **(وكنت أنا أكتم غيضي)**، عطرها، صوتها، **(كلامها، ضحكتها)**، وهي تدخل باحة الدار، أو وهي تسأل عنك، **(لم تأت مره دون أن تسال عني)**، تذرف دموعها، **(أسمع نشيج بكائها)**، أمام والدتك، وأختك. كانت تتوسل بشقيقتك، **(كنت أنا أسمع كلمات التوسل وكذلك أنت، وكنت أنا أغلي فيما كنت أنت تغلي، أنا من غيظي منك، وأنت من حياتك)**، تطلب منها أن تتحدث معك، **(يا ليتها كانت تعرف ما تكنّه لها من مشاعر حب لم تزل كما هي)**، تدفع شقيقتك إلى باب غرفتك علّك تقبل، **(وكنت أنا أتحرق شوقاً لأن تقبل سماع كلمة منها، وكنت لا أريد كلمات التوسل، كنت أريد فقط أن أسمع صوتها)**، بلقائها، كل ذلك لم يفد معك، لقد جعلك هذا الشلل اللعين تنسى سنوات الحب، **(حبي أنا)**، التي كانت لافتة بيضاء – وما زالت - أمامك، **(أنت وأنا)**، تخوض، **(أقصد أنا الذي كنت أخوض)**، ما خضناه من معارك في الجبهة، في الهور، أو على قمم الجبال، عندما كنت، **(أنا وليس أنت)**، أخرج منها سالماً، كنت أحدّث أصحابي وأهلي، وأخبرها هي بالذات، إن سلامتي كانت بسبب تلك اللافتة البيضاء التي ارتسمت عليها سنوات حبي. كل ذلك حدث، نعم، إلا انه لم يفد معك بشيء، **(نعم، إلّا انه ليس هو الحقيقة)**، ولم يخرجك من عنادك، **(ليس عنادي أنا)**، ومن هذا الموقف الذي اتخذته **(وأنا أرفضه)**، حيالها. لماذا، لماذا تفعل بها، **(بي)**، كل هذا، **(مجبر أنا على ذلك)**. هل تستحق هي منك، **(ليس مني)**، كل هذا الجفاء؟ **(رغماً عني)**، لماذا، لماذا؟

: موافق.

وانفتح باب الغرفة، امتلأ فضاؤها بضوء عطري، كان شبحها، لا، كيانها، ذاتها، بل هي نفسها، بروحها المرحة،

بابتسامتها الوردية، (**كما هي دائماً**)، بغمازتي خديها، بنظراتها الـ...، آه، هاهي أمامي، هل ...، بماذا أقابلها: بهاتين الساقين العاجزتين، (**سأقتلك إن فكرت بذلك**)، اللذين أكلتهما نار البارود فشوهتهما تماماً،(**قلت سأقتلك إن عدت لذلك**)، يا الهي، النار، النار، اشتعل القلب مني، فيما راحت أحشائي تستعر، الحر، البرد، لم أعد أتنفس، قطرة ماء، الهواء، الهواء، ماء، الهواء، (**كان صراخاً محموماً**).

في المستشفى رفض، (**الم أقل أن تتركنا أنا وهي**)، استقبالها، جاءت ثانية دون جدوى، (**لماذا تغيضني**)، توسلت إليها شقيقتي ألّا تتعب نفسها بالمجيء. قالت لها بتودد:- أرجوك اعذريه، (**هو لأنه يستحي وأنا لأنني لا أقدر عليه**)، لقد صدم، (**كلانا صدم، أما أنا فقد اجتزت الصدمة**)، علينا أن نخرجه، (**هو فقط**)، من محنته هذه، (**ومحنتي أنا معه**)، ثقي انه سيعود، (**نعم سأعود**)، إليك، سيرجع، (**هذا أكيد، سأجبره**)، حتماً، أنني على ثقة من أنه، (**وهو كذلك رغم كرسيه الدوار**)، يحبك كثيراً، (**وهل ما فعلته ليس بحب !؟**).

لم يكن المستشفى هو المكان الوحيد الذي رفضت، (**أنت الذي رفض رغماً عني**)، رؤيتها لك، رفضت أن تراك، (**تراني أنا**)، ممدداً على السرير، شراشف بيضاء، (**كانت لافتة حبها لي هي الأخرى بيضاء**)، وقناني المغذي والدم، (**كان حبها هو غذائي الوحيد عند احتدام المعارك**)، تمد أذرعها البلاستيكية إلى جسدك، (**فيما جسدي ما زال يتغذى على حبها**).

لم تكن هي قد انقطعت عن المجيء لرؤيته، (**ولم يكن خيالها قد ابتعد عن روحي**). كانت تأتي مع أهلي، تبقى واقفة خارج الغرفة، (**فيما كانت روحها تدخل معهم، تطوف حولي على السرير، أو تجلس على أحد الكراسي التي يجلس عليها أهلي بالقرب من السرير**).

مرة فتحت الباب بقوة، كانت هي نفسها، هي نفسها، هي نفسها، **(لماذا تسرع إلى غطائك الأبيض، سحبته، دثرت جسدك ووجهك)**، **(كنت ترغمني على أن أدس وجهي تحت الغطاء)**، **سمعتها تصرخ، وأقدامها، حذاؤها الجلدي يصرخ على بلاط ممر المستشفى والباب يغلق بشدة، كم أشفقت عليها، (حقاً كنت قاسياً عليها وعليّ أنا بالذات)**، خفت عليها، **(أنا وليس أنت، وأنت كذلك)**، بكيت عليها.

: موافق.

ها هي الآن أمامي. **(قلت لا شأن لك بها، اتركني معها)**

: موافق.

قلتها هامساً: موافق.

ها هو حبي واقفا خلفي، مجسد بهذا الكيان الجميل، فيما كانت حديقة دارنا أمام ناظريّ، وها أنا أختلس النظر إليها من خلال انطباع صورتها على زجاج النافذة أمامي. هل أدير الكرسي؟ **(استلمت قياده رغماً عنك)**، هل؟ كانت هي المبادرة، بيدين أحسست بهما ترتعشان فرحاً، راحت تدير اتجاه الكرسي، فالتهبت النار، الحب، الحنين، الشوق، في حضني، **(حضني أنا وليس حضنك أنت)**، كان شعرها الأسود الفاحم الناعم قد ملأه، **(سأقتلك إن دفعت برأسها خارج حضني)**، تكوم مرة واحدة، وراح ينشج.

كان صوت بكاءها قد ملأ الغرفة، فيما تساقطت قطرات الدمع على الشرشف الذي يغطي ساقيّ. كانت حرارة دمعها قد تسللت إلى عظام ساقيّ. أحسست بهما، **(عظام ساقيّ)**، ترتديانه، تتحدان، تنتعشان، وبأن آلاف القطع الزجاجية الصغيرة في لحم الساقين، تتجمع على شكل كرة صغيرة تنقذف خارج كياني. عندها وضعت شفتيّ على شعرها الفاحم الذي ما زال مفترشاً حضني، وقبلته.

(*) نشرت في مجلة الموقف الثقافي - ع ٤٣/ ك٢- شباط/ ٢٠٠٣.

"النهر يجري دائما"(*)

(إلى جسر الناصرية وشهدائه الأبرار، وذكريات جميلة لا تنسى).

تراءت من بعيد، عبر النهر الجاري، وعلى الضفة المقابلة له، تلك الآلات الضخمة التي بدت له وهي ترفع قطع الحديد المتشققة، وبقايا الخرسانات المتصدعة، من النهر الجاري سريعا، وصرير أجزائها المتحركة يملأ الجو المحيط به.

كانت بقايا الجسر الذي كان في يوم ما معبراً كبيراً بين الضفتين قد ابتلعها النهر، وكأن حوتا عظيما قد التهمه، بعد أن سحبه إلى القاع الأزلي الذي مرت عليه ملايين القطرات المائية، وآلاف الأجساد البشرية التي أخذها النهر قرباناً لبقائه جارياً عبر آلاف السنين.

وقف بوجهه السبعيني المتغضن، وقد أعتصر قلبه ألم حاد، أحس به يحاول الإفلات من قبضة الألم، فيما وَمَضَت في السماء التي فوق رأسه مئات البقع الحمراء، والصفراء، والخضراء، بتوهج سريع، وتعالت في إذنيه أصوات الانفلاقات الجوية، توهجت قبة السماء فوق رأسه. حدث كل ذلك في الساعة الثالثة من ظهر ذلك اليوم الذي حاول فيه أن يعبر الجسر إلى الصوب الثاني، لم ينس ذلك أبداً، كان حفيده ممسكا بيده، وقبل أن يصل إلى الحافة الأمامية للجسر، إلى حيث يبدأ الصعود، إلى ذلك المكان الذي سيبدأ به القلب بالاضطراب، إلى ...، فجأة امتلأت إذناه بدوي هائل ورهيب، فيما امتلأ بصره الكليل بآلاف الأشياء المتطايرة،

ثم، سكت كل شيء، وكان السكون- للحظات مرت عليه كأنها الدهر- قد خيّم على كل شيء، سكون في الاذنين، وسكون أسود في العينين، وكانت الأرض هي ملجأه الوحيد بعد أن سحبه حفيده بقوة نحوها، آه.

تأوه بألم حاد، سرعان ما رسم على شفتيه الباسمتين، إبتسامة صغيرة فضحت خلو فمه من الأسنان. بعدها هز رأسه منتشياً، فيما راحت يداه تخلع عن جسمه ملابسه كلها.

تقدم بخطى ثابتة، رغم وهن ساقية وهي تحمل جسمه الذابل، إلى حافة جرف ماء الفرات، وهو يكوّر ملابسه على رأسه بعد أن لفّ حولهما حزامه الجلدي القديم، وقبل أن يترك جسده يغطس في ماء النهر عابراً إلى الضفة الأخرى، مد بصره إلى ذلك الجانب الذي ما انفكت عيناه تحتويانه منذ أكثر من يومين، منذ أن سمع حفيده خبر إعادة بناء الجسر. منذ ذلك اليوم وهو يعيش فرحه الحزين. نعم، هكذا قال لحفيده الذي زف له ذلك الخبر المفرح.

: يا ولدي، أنا فرح بذلك، ولكنني حزين أيضاً، لأنني لن أشارك في إعادة بنائه كما شاركت قبل أكثر من أربعين عاماً في بنائه.

ارتسمت علامات الاندهاش على وجه الصبي، لم يكن يعرف أن ذلك الجسر الذي كثيراً ما عبر عليه وهو ينتقل من بيت والده إلى بيت جده قد شارك جده في بنائه.

انتبه الجد إلى وجه حفيده، إذ رأى عينيه تبحثان عن شيء ما في تغضنات ذلك الوجه السبعيني، ولكي يخرجه من تلك الحيرة، وذلك الاندهاش، قال:

: نعم يا ولدي، لقد شاركت في بنائه مع الشركات الأجنبية التي قامت بتشييده. كنا ثلاثة، أنا، وأخي، والحاج سلمان، رحمهما الله. ثلاثة حدادين قد اختارتهم الشركة للعمل معهم.

سأل الحفيد جده مستفسراً:

: هل عملت حداداً في الجسر، أقصد هل قمت بلحام أجزائه الحديدية؟

كان الوجه الصغير ما زال ممتلئاً بالدهشة، فيما الوجه المتغضن قد لاحت عليه سورة من الفرح الغامر.

قال الجدّ، بعد أن أخذ نفساً عميقاً من سيكارته التي كادت أن تنتهي:

: نعم، ومنذ اليوم الأول، وعندما انتهى العمل فيه طلب منا مدير الشركة الذهاب معهم إلى بلدهم، إلّا أننا رفضنا ذلك، لأن... .

قاطعه الوجه الصغير مستفسراً:

: لماذا؟!

أجاب الجد، وهو يربت على شعر رأس حفيده الصغير:

قد اتفقنا نحن الثلاثة على أن بلدنا بحاجة إلينا في بناء الجسور، قلنا، سيأتي اليوم الذي نبني جسورنا بأيدينا.

: وهل اشتركتم في بناء جسر آخر؟ سأل الصغير.

وبكلمات غطتها تأوهات حارة، قال الجد لحفيده الصغير وهو يشدّ على وسطه حزاماً جلدياً قديماً:

لقد طال انتظارنا دون جدوى، ومضت الأعوام، ومات من مات، وما زالت الشركات الأجنبية هي التي تشيد الجسور في العراق.

قاطعه الحفيد متسائلاً:

: لماذا لم ترحلوا معهم؟

تغضنت ملامح الجد كثيراً، فيما راحت شفتاه ترتجفان، عندها شعر الحفيد أنه قد أغاظ جده، لقد تغيّر كل شيء في ذلك الوجه السبعيني، ماذا فعلت؟ وعندما حاول الاعتذار، فاجأه الجد قائلاً:

: كلا، رفضنا ذلك، وبعد أن رحلا أخي وصديقي إلى الدار الآخرة، رفضت العمل مع أية شركة أجنبية، رفضت، لأنني أنتظر اليوم الذي...

سكت الجد فجأة. مد بصره إلى الأمام كأنه يحاول أن يعيد تلك الأيام مرة أخرى، فيما تساءل الحفيد قائلاً:

: أي يوم تقصد؟

كان سؤال الحفيد مفاجأة للجد، أخرجته من بين صور تلك الأيام، عندها تساءل قائلاً:

: هل يقبلون العمل معهم؟ فأنا أعرف كل أسرار هذا الجسر.

صمت الحفيد وكأنه يفكر بأمر جده، تساءل مع نفسه، هل يقدر على العمل وهو في مثل هذا السن، وبقلب مريض؟

قال الجدّ، وكأنه قد قرأ تساؤلات حفيده الصغير:

لا تخف، ما زلت قادرا على استخدام جهاز اللحام.

بادره الحفيد قائلاً:

لكنك تركت العمل منذ سنين طويلة، وما زال حال قلبك يسوء شيئاً فشيئاً.

لم يقل الجد شيئاً، بل راح يشعل له سيكارة ثانية وينفث دخانها من فمه الأدرد دون كلام.

***

عندما ارتدى ملابسه ثانية، كانت عيناه تجوسان باحثتين من بين الأنقاض والآلات الضخمة وسمرة وجوه العمال والمهندسين عن عامل اللحام، عن الشرار الذي يتطاير من أي جهة ما من هذا المكان الصاخب بالحركة، عن صوت وشوشة جهاز اللحام، وبلا وعي منه، وكأنه نسى مرضه، أحس فجأة بوخزة في ذلك القلب العليل، هل هو المرض، أم أنه الفرح؟ تساءل مع نفسه والصبي يقف بالقرب منه بعد أن عبر هو الآخر على جسر العبور متابعاً جده السابح في ماء

النهر. في اللحظة تلك توهجت في عينيه تلك الشرارات المتطايرة بألوانها الزرقاء، والخضراء، والحمراء، التي كثيراً ما رآها في تلك السنوات التي كان فيها القلب يعمل بانتظام.

ها هي قد ملأت الفضاء من جديد، وهي تتشكل بآلاف الصور أمامه. كان وجه أخيه قد لاح له من بين آلاف الشرارات المتطايرة. وجوه أخرى برزت أمامه من بين آلاف الذرّات المتوهجة من مكان اللحام، ابتسمت له الوجوه، وها هو وجه صديقه الحاج سلمان من بينها كما عهده من قبل، باشاً، فرحاً. كل الوجوه تصيح به أن يتقدم، تقدم، تقدم.

***

عندما فتح عينيه، كان قلبه ما زال ينبض، وسواد عينيه ينتقل ما بين الوجوه التي أحاطت به، كيف حدث ذلك؟ تساءل مع نفسه، كان على جرف النهر، كل شيء أمامه مصطخباً بالعمل، وها هو الآن ممددا على سرير حديدي داخل أحد (الكرفانات).

سمع صوت من بين الوجوه المحيطة به يقول:

: لقد صحى.

سأله وجه آخر:

: كيف الحال؟

قال ثالث:

: هل تحس بألم ما؟

تتابعت الأسئلة، كان الكل مهتماً به، وقبل أن ينطق بكلمة ما انفرجت دائرة الرجال المحيطة به عن شخص عرف فيه أنه المسؤول هنا، ومن بين شفتين باسمتين سأله المسؤول:

: كيف الحال يا حاج؟

وقبل أن يشكره، التقت عيناه بعيني حفيده الصغير وهو يقف قرب المسؤول:

: الحمد لله،

سأله المسؤول:

: هل حقا تريد العمل معنا يا حاج؟

أغمض عينيه، فيما كان قلبه ينبض بشدة، وامتزجت إبتسامة المسؤول مع ابتسامات الفرح التي شاهدها على شفاه أخيه وصديقه الحاج سلمان.

تذكر ذلك اليوم الذي بدأوا فيه العمل لأول مرة في الجسر قبل أكثر من أربعين عاماً، تلك اللحظة التي إتجه فيها الثلاثة من المدينة إلى مكان العمل في الجسر الجديد. كان المدير ذو الوجه الأحمر المتورّم يرطن بلغة لم يفقه منها شيئاً، إلّا أن المترجم نقل لهما كل كلمة منها. كان في كلام المدير وتصرفاته غطرسة دفعت به وبصديقه الحاج سلمان إلى التفكير بأن يتركا المكان، لكن أخاه منعهما من ذلك، قال لهما:

: سنتحمل ذلك من أجل أن نتعلم الكثير، يجب أن نتعلم الكثير.

نعم، يجب أن نتعلم الكثير.

فتح عينيه فيما كانت كلمات أخيه ما زالت تخرج من بين شفتيه اليابستين. سأله المسؤول مندهشاً:

: تتعلم ماذا يا حاج؟

ابتسم الحاج، وبصوت هادئ قال:

: لا عليك يا أستاذ.

جلس المسؤول بالقرب منه على حافة السرير، فيما خرج الجميع:

: لقد أخبرنا حفيدك بكل شيء.

قال الجد وكأنه يريد أن يثبت لهذا المسؤول الشاب أنه يستطيع العمل معهم:

: أعرف كل أسرار هذا الجسر، صدقني كل شيء فيه، حتى كمية الحديد والاسمنت والرمل التي أستخدمت فيه.

توقف قليلا عن الكلام، فيما امتد بصره خارج الكرفان وراحت عيناه تحتويان كتلة الحديد المتشققة وهي معلقة بنهاية سلك إحدى الرافعات الكبيرة، ثم تابع حديثه متسائلاً دون أن يبتعد نظره عن تلك القطعة الحديدية الكبيرة:

: أتعرف من قام بلحام تلك القطع الكبيرة؟

أجابه المسؤول وهو يمد بصره إلى خارج الكرفان متابعاً حركة القطعة الحديدية وهو تتدلى في نهاية السلك المعدني:

: أعرف ذلك، إنك خبير كبير في اللحام يا حاج، إلّا أن قلبك هو.

قاطعه الحاج من بين شفتين مزمومتين قائلاً:

: في الجسر.

: أقصد مرضك.

: سأشفى منه.

***

(*)هذه القصة منشورة في كتاب بنفس عنوانها، يضم نصوص إبداعية، كالقصة القصيرة، والشعر، والمسرحية، وهي النصوص الفائزة بالجوائز الثلاث الأولى، وقد فازت بالجائزة الأولى في المسابقة نفسها، وهي المسابقة الإبداعية لدار الشؤون الثقافية العامة لسنة ٢٠٠٠.

"حكاية قصة"

عندما جلس أمام الأوراق التي سطر عليها مسوّدة قصته التي كتبها وتركها لتنضج – كما أكد أكثر من مرة –، كان همّه الرئيس، هو الخاتمة، خاتمة أحداثها، إذ لكل بداية نهاية، وقد تعلم من قراءاته لأساسيات فن القص، إن القصة القصيرة، ما هي إلّا بداية، ووسط، ونهاية، أو بداية، وأزمة، وحلاً لتلك الأزمة، أي بعد البداية، تتشابك الخيوط، ومن ثم يحل ذلك التشابك.

نعم، كانت أجواء الحرب هي الطاغية على الجو العام للأحداث، وبالضبط، الأيام الأخيرة من تلك الحرب. وكان مكان أحداثها يعبق برائحة البارود، فيما الأصوات التي يسمع قارئها، ضجيجها - وهذا سر إعجابه بها- هي أصوات انفجار القنابل، وأزيز الرصاص، وهدير محركات الدبابات. وفي مثل هذا الجو، برزت شجاعة وقدرة شخوصها.

كانت أحداثها تتصاعد شيئاً فشيئاً للوصول إلى الذروة، الذروة/ النهاية التي عندها تسكت المدافع. هكذا أراد لها أن تنتهي.

إن القصة القصيرة - كما أخبر أحد زملائه – هي قطعة من الحياة، لحظة مستلة منها، وها هي الحياة يراها – أو لحظة منها – تنبض بكل شيء، بالحرب والسلام.

في تلك الفترة الزمنية التي مضت، وقد تميزت بهدوئها وصفائها، وامتدت بين كتابتها لأول مرة، وبين هذه اللحظة التي أخرج فيها أوراقها، كان بين وقت وآخر، يخرجها من الدرج الذي احتضنها طيلة تلك الفترة ليعيد قراءتها ويشذب فيها، يحذف ويضيف. كان توقيت زمن النهاية موفقاً،

واسلوب طرح الفكرة جيداً، إلّا أن ما كان يقلقله كثيراً – كما أخبر زوجته التي طلبت منه أكثر من مرة أن يرسلها كما هي للنشر – هو هذه النهاية. وفي الحقيقة – كما قال لها – لم تكن النهاية بحد ذاتها، بقدر ما كان يقلقله مما سيأتي من تفسيرات أو سوء فهم سيقع فيه بعض القراء الذين لا يرتاحون كثيراً لنهايات قصصه.

مرة قال له ابنه الكبير: سأساق إلى الخدمة العسكرية، وأنت لم تنته بعد من أمر هذه القصة، هل تنتظر شيئاً غير هذه النهاية الجميلة؟

كان خبر سوق ولده الكبير إلى الخدمة العسكرية قد أعاده إلى ذكرياته عن الحرب وخدمته الطويلة في القوات المسلحة، ومن ثم إحالته بعد تلك الخدمة إلى التقاعد بعد أن سكتت المدافع، وعاد كل شخص إلى أهله. قال له وبقلق فضحه ارتجاف شفتيه:

- آمل أن تنتهي خدمتك العسكرية في فترتها المحددة.

قبل أشهر، أنهى ولده الكبير دراسته الجامعية، وكان أمله إن ينهي الخدمة العسكرية ليعيّن في وظيفة لها علاقة بإختصاص دراسته. وهذا ما كان هو ووالدته يحلمان به، إلّا أن ما زاد من قلقه أكثر هو تساؤله عما ينتظره من نهاية غير هذه النهاية.

عندما وضع الأوراق أمامه في تلك الليلة، شاهد إبتسامة صغيرة مرتسمة على شفتي زوجته، فهم ما كانت تفكر فيه دون أن تقول شيئاً، إلّا ان ولده قال له برجاء:-

- أرجو أن تنتهي من هذه القصة، لقد عذبتك كثيراً، أتمنى أن أراها منشورة قبل أن أرتدي ملابس الخاكي.

أجابه والقلق ما زال معرشاً في كل خلايا جسده:

- إن شاء الله، سأنتهي منها هذه الليلة.

رغم انشغال زوجته بترتيب لوازم المطبخ قبل أن تذهب إلى سرير النوم، سألته بامتعاض:

- هذا يعني، إنك ستسهر هذه الليلة؟

وعندما أجابها بنعم، سألته: أما زلت تخاف من نهايتها؟

- نعم، من بعض القراء سيئي النيات، أو المدفوعين للتهجم ضد ما أكتب.

أكدت له:

- إلّا أن نهايتها جميلة وقوية.

- سأعيد قراءتها أكثر من مرة، وعندما أطمئن لها، سأتركها كما هي.

بعد أن غادرته زوجته وولده ليناموا، كان الوقت قد تأخر كثيراً.

الوقت يقترب من فجر اليوم التالي، وهو لم ينته بعد.

كان القلق هو ما يحتويه كلياً، حتى هذا الوقت، وهو لم يتخذ قراره النهائي بشأنها، كان أكثر ما يخيفه - وهذا ما يفكر فيه الآن – هو سوء فهم بعض القراء المعادين لكتاباته.

أعاد للمرة العاشرة قراءة النهاية فقط، وبالضبط من آخر قنبلة مدفع أطلقها الأعداء على بعض مواقع أبطال القصة، إذ بعد هذه القنبلة، كانت القصة قد بدأت تنهي نفسها مع أحد شخوصها وهو يستمع إلى البيان النهائي لأيام الحرب.

اطمأن لهذه النهاية رغم القلق الذي ما زال يتنفس من كل مسامات جسمه الذي أنهكه التعب والسهر، إلّا أنه لم يكن مسروراً لها على الرغم من أن عبئاً ثقيلاً قد أزيح عن نفسه كما أعتقد.

هيَّأ أوراقاً جديدة، وراح يعيد كتابة القصة مؤكداً مع نفسه القلقة أنه سيرسلها صباح الغد بالبريد إلى إحدى الصحف اليومية لنشرها. وبدأ يخط على الورق أحداثها سطراً سطراً.

كان القلم ينساب على الورق الأبيض الصقيل بهدوء فيما السكون يلف البيت وغرف النوم، إلّا أن القلق كان يتصاعد في نفسه كالبركان، تساءل:- هل هو قلق الإبداع، أم أنه قلق من نوع آخر لا يعرف عنه شيئاً؟

وضع القلم على الورقة، بعد أن وصل إلى سطور النهاية. أشعل سيكارة له، سحب منها نفساً عميقاً، ثم مد يده ليكتب، عندها اهتزت جدران بيته وأثاثه، كان صوت زوجته وأبنائه قد ملأ الدار، وأزيز الطائرات يملأ فضاء المدينة، وقلمه راح يسطر آخر كلمتين في القصة بعد أن سمعها من فم ابنه الصغير:

- عاد القصف من جديد.

***

"طائر الفينيق"

لم تكن المرة الأولى التي يجلس فيها في مثل هذا الوقت من الليل الموحش على ضفة النهر، لقد ضاع حساب الليالي عليه.

كان - كعادته منذ سنوات – عند حلول الظلام، بعد يوم من التعب في البحث عما كان يسميه بالسعادة في العمل. كان يمر على محل بيع المشروبات، نفس المحل الذي تعوّد أن يشتري منه كل مساء، يبتاع له قنينة من العرق، يدفع ثمنها بالكامل، بعدها يمر على محل بيع الفواكه، يشتري له ليمونة واحدة، واحدة فقط، ثم يدلف في زقاق ضيق يفضي به من خلال شبكة من الأزقة إلى حافة النهر دون أن يلتف إلى ما حوله، مما ينبض من حياة في تلك الأزقة.

وكعادته، يجلس على أحد الكتل الكونكريتية المتبقية من إحدى دعامات ذلك الجسر الذي لم يبق منه سوى كتل من الحديد المتآكل، والملتوي على نفسه، حاكياً سيرة حياة انتهت به إلى مثل هذه النهاية.

- آه.

قالها بحرقة، ككل مرة في مثل هذا الوقت وفي هذا المكان، أحس بها تخرج من كل مسامات جسده المتعب.

مد بصره إلى ما حوله. كان الظلام مخيما كطائر ضخم مد جناحيه على وسعهما. حتى النجوم أبت أن تلتمع في سماء هذه الليلة، فيما أختفى القمر تماماً تحت غمامة سوداء ملأت صفحة السماء كلها.

مد يده إلى الكيس الصغير وأخرج منه حبة الليمون الوحيدة، نغزها بعود ثقاب كان يحمله في جيبه، ثم قربها إلى شفتيه وأمتص منها قليلاً مما فيها من سائل لاذع الحموضة.

ظل نظره مزروعا في صفحة الماء الداكنة أمامه بحركتها الهادئة الأزلية التي تكاد أن تكون ساكنة تماماً، أخرج من الكيس قنينة العرق، وراح بأصابع قوية يفتح سدادتها المعدنية اللاصفة كبريق الذهب في هذا الظلام الحالك.

تعود أن يفتح سدادات القناني بيديه. لم يترك للنادل – في أي نادي يجلس فيه – أن يفتح له السدادة. كان يقول لمن يسأله عن السبب: إن لذة الشرب تبدأ من هنا، من فتح القنينة، وتنتهي باللهب الأزرق المتوهج في قعرها. إذ عندما كان يحتسي ما في القنينة يرمي في داخلها عود ثقاب مشتعل، كان قعر القنينة يدفع باللهب الأزرق إلى خارجها يرافقه صوت يشبه فحيح الأفعى، عندها ينطفئ كل شيء في النفس، ينطفئ ذلك الدبيب داخل شراييه، وينقبض القلب، تتوتر الأعصاب، ويدوخ الرأس.

مرة جلس بالقرب منه رجل لم يكن قد رآه من قبل، وبعد الكأس الأولى سأله الرجل عن المرارة التي كان يحسها وهو يعبّ الكأس بعد الآخر.

لم يشأ أن يجيبه، لم يود أن يدخل معه في نقاش يمتص ما كان يحس به من انتشاء وسعادة تلك اللحظة، لكنه عندما سمع الرجل يكرر سؤاله أجابه: كلا يا صديقي، إن السعادة تأتيني عندما أجلس أمام هذه القنينة، أما بعد ذلك فهي المرارة بعينها.

نظر الرجل إليه باندهاش، ومد يده إلى كأسه وراح يرتشف منه السائل الحليبي بوجه تقلصت فيه كل عضلة، وأغمضت عيناه كمن يتجرع كأس سم زعاف.

روّعه كثيراً ذلك المرآى. لم يكن يعرف أن بعض الناس تتجرع الخمرة وكأنها منقادة إلى خشبة الإعدام.

تساءل مع نفسه: ما الذي يدفعهم إلى ذلك؟ ليجلسوا في بيوتهم يتسامرون مع زوجاتهم، وليتركوا هذا الشأن لمن يجد سعادته فيه.

ابتسم عن أسنان أكلها التبغ والسوس ومد يده في جيبه وأخرج قدحاً صغيراً ملأه إلى منتصفه بالسائل الزجاجي اللاصف، وبيد واثقة عب ذلك السائل في فيه، ثم راح يمتص من حبة الليمون رشفات تركت لسانه يمسح شفتيه الداكنتين بنشوة.

دفع بجسمه إلى الخلف قليلاً، وأفرج ما بين ساقيه الممدودتين، وشبك يديه خلف رأسه ماداً بصره إلى حيث ذلك الطائر الخرافي الأسود المتهيئ للإقلاع.

مرت ريح خفيفة في الفضاء الذي احتواه. سمع حركة الماء الهادئة تمتزج بحفيف نباتات القصب الداكنة الخضرة النحيلة التي حوّطت مكان جلوسه. فيما كان نصف الجسر المتبقي يمتد شامخاً ككتلة سوداء على يمينه.

قبل أكثر من ثلاثين عاماً، وبين سعادة الناس وفرحتهم بافتتاح ذلك الجسر، وجد هو الآخر سعادته عندما شارك بعض زملائه الشباب في قنينة عرق جمعوا ثمنها من جيوبهم الفقيرة.

كانت المرة الأولى التي يتخلف فيها عن العودة إلى البيت بعد حلول الظلام، وعندما عاد في ساعة متأخرة، وجد باب الدار مفتوحة، ووالديه نائمين، أغلق الباب وأغنية هادئة تنساب من بين شفتيه المغسولتين برائحة العرق. لم يسأله أحد عن سبب تأخره في صباح اليوم التالي، ولا في كل صباح.

- إيـــــــــــه.

تنهد بصوت ضاع في ظلمة الليل كقطرة ماء في بحر، فيما كان بصره ما زال مثبتاً على ذلك الحيوان الحديدي الذي مد عنقه فوق صفحة النهر.

أكثر من ثلاثين عاماً وأنت تمد جناحيك على ضفتي النهر، كيف تعطي نفسك لهم بهذه السهولة، كيف، كيف؟

لم يكن لسانه هو الذي نطق بتلك الكلمات، كانت شفتاه مطبقتين على بعضهما، فيما الكلام ينساب في تجاويف رأسه الثقيل، عندها أخذ رشفة من القنينة دون أن يغير من وضع جلوسه، وبصوت متلجلج كأنه يناغي طفلاً صغيراً راح يخاطب تلك الكتلة السوداء التي أمامه:

: كيف؟

: كيف تعطي نفسك أيها العظيم؟

:أي مادة قاتلة زرعت فيك هذا الدمار؟

ثم بصوت عال صرخ: لا. لا.

انتفض واقفا كالملدوغ وهو يصرخ،لا،لا، وتابع تنهدات صوته:

: لِمَ تعطيهم نفسك بسهولة؟ لقد حاولوا معك كثيراً، كانوا يحاولون اقتناصك لكنك كنت أكبر منهم. كانوا جبناء، جبناء وأنذال، (وراح يهوّم بيده وقد ضم أصابع كفه كمن يلاكم شخصا أمامه) استغلوا فيك طيبتك، حبك لأهلك، انتظروك حتى تضم بين جناحيك مئات من أحبتك، صغاراً وكباراً، صبياناً وصبايا بعمر الزهور، وأطفال كالرياحين. كانوا يتربصون بك، يعرفون أنهم لم يستطيعوا النيل منك، جبناء، أنذال، تحينوا الفرصة، وعندما رأوك تحتضن محبيك هجموا عليك، يعرفون أنك سوف لن تدع محبيك، كنت مزهواً بعبورهم بين ضفتيك، عندها – لعنة الله عليهم - رموك بسهمهم القاتل.

: آخ، أي عذاب قد نالك منهم؟

وبعصبية زائدة فتح قنينة العرق وصب ما فيها من السائل الزجاجي اللاصف في فمه دون أن يحول بصره عن مخاطبه، أو يمتص قطرة واحدة من السائل الليموني.

: كان عليك أن تضع في حسابك أنهم جبناء. كان عليك أن لا تعطيهم نفسك بهذه السهولة. أسألك أيها الكابي، في أي مكان كانت ابنتي العروس وزوجتي تسيران في طريقهما إلى المحكمة الشرعية لعقد قرانها، هل كانتا قرب السياج الأيمن أم كانتا قرب السياج الأيسر؟ هل راقبتهن جيداً عندما طارت أجسادهن مع أجساد محبيك في الجو؟ هل وقعتا على صفحة الماء، هل كان بارداً؟ أم إنهن سقطن على قطعة حديدك الصلبة الملتهبة، تكلم أيها الـــ، تكلم، تكلم؟

وبيد مرتعشة، راح يطوح بالقنينة في الفضاء الداكن. كان واقفاً وبصره مثبتاً على تلك الكتلة السوداء أمامه، والقنينة في كفه تدور، طوح بها بشدة وهو يصرخ: تكلم، تكلم.

حررها من بين أصابع كفيه، فتدوّم جسده، ترنح يميناً وشمالاً، وتكوم مرة واحدة بين أعواد القصب المنتصبة.

***

"المياه"

امتد بصره على صفحة الماء التي عاد إليها هدوءها منذ ليلة البارحة، أحس بإرتعاشة في جفنيه، وثقل فيهما كان يدفعهما إلى الإغماض بين فترة وأخرى، وكأن قوة سحرية، قوة لم يستطع إدراكها، تدفعهما إلى إغلاق فتحة عينيه اللاتي احمرّ بياضهما، وأنهك أعصابهما سهر ثلاث ليال متتالية.

كان النوم قد جفا هاتين العينين منذ ذلك الحين، فيما راحتا تكابدان ذلك النعاس اللذيذ بما في أعصابهما من قوة، وما في جسده من حياة ونبض في القلب الذي أحس به لِما يزل يسع الدنيا كلها وما فيها.

كانت صفحة الماء التي أخذ نظره يمتد عليها، هادئة، فافترت شفتاه عن ابتسامة كثيراً ما ترددت منذ ليلة البارحة على تلك الشفتين اللتين أكلهما التبغ وملوحة هذه الأرض التي ظلت تئن من وطأة أقدام غرباء لسنتين كانتا أطول من كل دهر، تصرخ بكل ما فيها من ملوحة طيبة، ونخل يتسامق، وأشعة الشمس بسعفاته التي لم تعرف الهدوء منذ تلك اللحظة التي وطأت فيها أقدام الغرباء هذه الأرض التي امتدت فيها جذورها.

كان مذاق الملح قد أحس به كحلاوة تمر هذا النخل الذي احتوته هذه الأرض، وقد امتزج بدخان سكارته، فراح يكحل عينيه بمرآى هدوء ماء هذا الشط الذي عكس أمامه النجوم التي طرزت صفحة السماء في ليل الفاو الهادئ.

قبل ليلة البارحة، كانت يداه قد تحنتا بالماء الأحمر الغريني الذي دفع به الشط بين مسامات الأرض وشقوقها،

فغمر اخضرار الزرع، وراح مندفعاً بكل ما فيه من قوة مخزونة منذ أيام الطوفان، وبكل الاتجاهات حتى دخل عتبة غرفة نومه مع (العجوز).

لم يرَ مثله من قبل باندفاعه وحمرته. ها هو النهر يهيج، وكأن قوة سحرية سكنت في مياهه الهادئة. إنه فأل حسن – هكذا ردد مع نفسه- وها هو الآن يكحل عينيه بعد سنتين بماء شط العرب الذي بدا ساكناً هادئاً يجري وهو يغسل في طريقه كل أدران تلك الأقدام الغريبة.

كان قبل ساعات توضأ من مائه، وصلى ركعتين حامداً فيهما الله، وشاكراً عنايته الإلهية.

كانت صفحة الماء هادئة، فيما كانت الضفة الثانية للنهر بظلالها الموحشة تنغرس في قلبه وكأنها تريد أن تذكره بما تخفيه من شر دفين.

أحس بكف تربت على كتفه، وكان هو غارساً قدميه في أرض الشق الطولي الذي تركه الغزاة هاربين.

كان مقاتلو السرية قد احتواهم هذا الشق وغيره من الشقوق الأخرى التي اتخذوها موضعا لهم يحرسون من خلاله ضفة الشط، وراحت مدينة الفاو تنام بهدوء بعد أن جفى عيونها النوم لسنتين كانتا فيهما تنزف الدم وتئن بحرقة.

أدار رأسه إلى حيث كان يقف آمر السرية الذي امتدت يده اليمنى لتربت على كتفه، فاجأه وقوفه وهو منتصباً على رأسه، نهض، أدى التحية له، فيما كانت يده الأخرى تحمل السيكارة التي أكلت النار نصفها، بدا الارتعاش على شفتيه:

: سيدي اخفض رأسك، أنت مكشوف.

ابتسم الأمر، وبانت أسنانه البيضاء التي مرت عليها الفرشاة قبل دقائق:

:لا عليك ن. ض حميد.

سأله ن. ض حميد وهو يعرف أن هذا الضابط الذي يقف بجنبه هو نفسه الذي كان أول من وصل إلى هذا المكان في الصولة التي تردد فيها التكبير بإسم الله طاردين الغزاة.

: سيدي هل هناك أوامر تريد تبليغ السرية بها؟

أجابه:

: كلا، جئت لأطمئن عليكم.

فقال ن، ض حميد:

: سيدي أرجو أن ترتاح، اطمئن، إن كل أفراد السرية يقظين ولا خوف عليهم.

ابتسم الضابط، وقال:

: لقد منحك آمر الفوج إجازة لمدة أربعة أيام.

وقبل أن يسأله لماذا، كانت المفاجأة قد شلّت لسانه. إذ قبل أن يخرج من دوامة الأسئلة والأفكار التي تكوّنها، مزقت صفاء تفكيره اجابة آمر السرية وكأنه عرف ما يجول بتفكير هذا الرجل الذي تجاوز الخمسين من عمره:

: يجب أن تعود إلى البيت.

عندها عرف السبب.

: شكراً سيدي، ولكنني لا أستطيع أن أترك منتسبي السرية، إنهم بحاجة لي في هذا الوقت.

أجابه أمر السرية آمراً:

: أنت عسكري منضبط وتعرف الأوامر جيداً ولا تنسى أن عائلتك تحتاج إليك في هذا الوقت، أرجو أن تذهب وتدبر أمر عائلتك خلال هذه الأيام القليلة.

: سيدي، لست الوحيد.

وقبل أن يكمل كلامه بادره آمر السرية قائلاً:

: سيذهب غداً كل من فاض بيته من سكنة تلك المنطقة.

بين أن يرفض الإجازة وبين أن يقبلها كان آمر السرية قد غادر المكان، إذ غيبه الليل في ظلمته.

امتدت به أفكاره وهو واقف في مكانه مادا بصره إلى الضفة الأخرى من شط العرب، إلى بيته الذي غمرته مياه الفيضان.

كان الليل ما زال في منتصفه، هدوء تام يلف الكائنات على هذه الأرض التي غابت عن نواظرنا لسنتين، وعن قلوبنا وأرواحنا – حدث نفسه – ثم ردد بحرقة: الفاو، ملح، وتمر، وحناء، وماء.

قالت له فيما كان الأسى بادياً على ملامح وجهها:

: والحنة؟؟ من أين نجلب الحناء؟

ابتسم لها والغصة تنغز في قلبه، فيما تلألأت قطرات من الدمع في عينيه التي أحال الدم لون بياضها إلى ما يشبه لون الشفق، أجابها:

: هل هذا كلام يا أم شاكر؟

أبعدت بصرها عن صفحة وجهه، أحس أن ملامح الحزن قد بانت على وجهها من جراء رده على كلامها، نعم لا وقت لمثل هذا الكلام، الفاو أخذها الغزاة، وهي تسأل عن الحناء. سأل نفسه، فيما راحت شفتاه تمتص الدخان من السيكارة، وقبل أن يترك الغرفة خارجاً من البيت اعتذر لها:

:لا تهتمي أم شاكر، الدنيا ما زالت بخير، والحناء ستضعينه على شعرك وفي كفيك.

عندها ابتسمت، انفرجت أساريرها، ردت:

: الله ينصركم،هذه هي الحرب يا أبا شاكر.

ما الذي دهاه هذه الساعة ليتذكر ما حدث قبل سنتين؟ والحناء، ابتسم، كانت الضربات تتوإلى بين أضلعه، قال في نفسه: سيأخذ لها من حناء الفاو، ستستقبله فرحة هذه العجوز الطيبة التي عاشت معه حلاوة الدنيا ومرارتها. والمياه؟ ردد الكلمة أكثر من مرة. أحس عندها بانقباض في صدره، وأن أضلاعه تنطبق الواحدة على الأخرى. تراءت له المياه تملأ

بيتهما، تحيط به من كل جانب، تذكر قول ابنهما شاكر قبل أن يعود إلى وحدته في شمال العراق: أن يتركا هذا البيت، يرحلا من هذه المنطقة، بنى لهما بيتاً في المدينة، إلّا إنهما رفضا الرحيل. قالت العجوز أنها ستموت هنا. أما هو فقد قال لابنه: اقنع والدتك بالرحيل وأنا سأرحل. لكن المياه أحاطت بكل شيء. لم يعرف كيف غفى على فراشه. أيقظته هذه العجوز الطيبة التي ظلت يقظة طيلة الليل وهي تنظر إلى باب الدار تترصد المياه خوفا من دخولها إلى الدار، فيما كانت الرياح تعوي بأصوات منذرة، والمياه تحيط بكل شيء. حركته، انتفض كالملدوغ مذعوراً، صاح: خير أم شاكر!

أجابته وهي تسرع راكضة نحو باب الدار:

: الماء أبو شاكر.

وبهدوء تام رد: خير إن شاء الله، دعي الماء يدخل إلى داخل الغرفة، الماء خير يا أم شاكر؟

نظرت إليه، تساءلت: هل ما يقوله صحيحاً، أم أن النعاس الذي أغمض عينيه هو الذي دفعه لقول ذلك؟ قالت له:

: أبو شاكر، وصل إلينا الماء، ماذا تنتظر؟

ابتسم في وجهها:

: أم شاكر، سنترك الدار.

إلا أنها رفضت، رفضت أن تذهب إلى المدينة. ظلت تسد الفتحات التي ينز منها الماء بالخرق، بينما هو أخذ يجمع حاجيات الغرفة ويضعها فوق السرير الحديدي.

قال لها: يجب أن تذهبي إلى المدينة، غداً أعود إلى وحدتي ولا أقبل أن تبقي لوحدك.

كانت هي تمزق بعض الخرق وتدسها في فتحات الباب الخشبي:

: والفيضان؟

: اتركي كل شيء، لن تقدري على صد هذه المياه.

أجابته وهي تنظر في وجهه، بينما أخذت المياه تنتشر كالنار في أرجاء الغرفة:

: سأبقى هنا، هنا في الدار، وتوكل أنت على بركة الله وحفظه، عد إلى وحدتك، لا تهتم أبو شاكر.

لم يخف عليها لأنه يعرف أنها تقول ما تريد فعله، لكنه سيذهب غداً، غداً صباحاً، سيعود إلى وحدته التي بدأ انتشارها قبل منحه الإجازة الشهرية على أرض الفاو.

قالت له: لم يبق من الليل سوى القليل، ساعدني على حمل الأغراض إلى سطح الدار.

بدأ الماء يتصاعد شيئاً فشيئاً، فيما كانت أمواجه تتلاطم بصوت مسموع خارج الدار، وزخات المطر ترش وجوههم.

قال لها: سأعود اليك عصر هذا اليوم.

ردت: لا، الفاو تحتاجك.

قال لها: لن تستطيعي فعل شيء لوحدك؟!

قالت له: ستسمع الأخبار التي ترضيك إن شاء الله.

ابتسم، لاعب شعر شاربه الأبيض وقال في نفسه: وسترين أنت ما سنفعله.

***

"أحلام المغني الصغير"(*)

نظر إلى الساعة المنضدية ذات الشكل الدائري، كانت عقاربها تشير إلى الثامنة مساء.

صاح حاثاً أمه: هيا اسرعي يا أماه.

راحت الأم تعد "الصندوق الخشبي" وهي ترتب بداخله علب السكائر، وعلك "أبو السهم"، والأكياس الصغيرة الممتلئة بـ "حب الرقي الأحمر، والحب الأبيض"، وبعض الحلويات، والمكسرات.

قبل أن تنتهي أمه من ترتيب تلك الأشياء الصغيرة في "الصندوق الخشبي"، كان "كريم" بسنواته العشر يلبس "دشداشته" السوداء بسرعة غير اعتيادية كأنه يريد أن يستر عُري جسده مما دفع أمه إلى القول:

- كريم، لا داعي يا ولدي للعجلة، ما زال الوقت مبكراً.

كان قد انتهى من ارتداء "الدشداشة". وبينما كانت يداه تزنّران الحزام الجلدي على خصره الضامر، قال مؤكداً:

- يجب أن أصل قبلهم.

رددت الأم بعد أن وضعت "العرقجين" الأبيض ذات الحواف المتهرّئة على رأس إبنها الوحيد.

- يجب أن تأكل شيئاً، تناول عشاءك قبل الذهاب.

كانت عيناها تتشربان ملامح زوجها في وجه ابنها "كريم"، ذلك الزوج الذي لم يترك بعد موته سوى هذا الوجه الصغير الذي يذكرها به.

قال لها وهو يضع الحزام الجلدي للصندوق الخشبي خلف رقبته، ويوازن طرفيه بكفي يديه:

- لن آكل هذه الليلة، يجب أن أحافظ على حنجرتي نظيفة، وصافية.

وقبل أن يفتح باب البيت، أدار وجهه إلى حيث وقفت أمه وهي تتملاه بفرحة أحس بها من خلال نظرات عينيها الصافيتين، خاطبها بتوسل لا يخلو من نبرة حنان:

- أمي، لا تأكلي شيئاً، انتظريني سأشتري لك "كباباً ". ثم فتح الباب وخرج.

احتواه الزقاق المظلم، فبدا كأن الهواء ساكناً سوى ما أحس به من برودة لذيذة قد احتوت جسده الصغير كله وخلفت فيه رعشة سرعان ما تلاشت مع ما يحس به من بعض الإرباك، وقليلاً من الخوف الذي دفع قلبه إلى أن يدفع بالدم إلى عروق جسمه كلها بقوة أحس بها تضرب على صدغيه.

أخذ يشق طريقه إلى حيث أصدقائه الجنود، إلى المكان الذي باع فيه في الليلة الماضية كل محتويات صندوقه الخشبي الصغير. حتماً سيأتون هذه الليلة كما وعدوني.

هذا ما أكده مع نفسه كأنه يمدها بقوة إضافية للإسراع إلى لقائهم عند ذلك المكان.

عدّل من وضع الصندوق الخشبي الذي أخذ حزامه الجلدي يحز في رقبته النحيفة تاركاً عليها آثاراً أحس بها تحترق من تحت جلد الحزام. قال أحدهم وهو يشتري منه علبة سكائر كاملة، وبعض الحلويات:

- سيكون هذا المكان موقفاً لحافلاتنا العسكرية التي ستعيدنا إلى المعسكر مساء كل يوم في الساعة التاسعة.

وأكد له أحد الجنود الشباب وهو يدفع له ثمن العلك، والحَب:

- لا تنس هذا، في كل ليلة.

كان مسروراً ومبتهجاً أمام حلقة الجنود التي تشكلت حوله وهم يستمعون إلى صوته العذب.

" تميت أحومي إعله شوفك بس أروحن ورد
أبغي وصالك وروم إمن المراشف ورد
مفروض ذكرك علينه...".

اندفع خشب الصندوق إلى بطنه، أحس بالألم يضغط على عضلات بطنه الصغير، تناثر كل شيء على الأرض في ظلام الليل، ذلك الظلام الذي انتشر في الشارع سوى ما كان يبعثه مصباحه من ضوء شاحب، زل قدمه في حفرة صغيرة فيما كان صوته يتهادى بين جنبات الشارع المقفر.

نهض من الأرض، تلفت إلى جميع الجهات، لا أحد سواه في الشارع، أخذ يجمع ما تناثر من أشيائه الصغيرة، جمعها كلها في صندوقه الصغير وما زال الألم يحرق بطنه، وأحس بقطرات عرق صغيرة تفصدت من مسامات وجهه الذي جمدت عليه ملامح الخوف والإرباك.

كانت السماء كعباءة امه، سوداء كبيرة، والغيوم قد غادرت صفحتها كأنها – حدّث نفسه ضاحكاً ليطرد عنه شبح الخوف – ستتجمع عند موقف الحافلات العسكرية لتشارك الجنود سماعهم لصوته وهو يغني لهم ذلك الموال العذب:

"مفروض ذكرك علينا بالفرايض ورد
من حيث بإسمك تتم افروضنه والدعه
"رضوان" حسن الجواري..."

حاول تناسي الألم في بطنه، أبعد عن خاطره أن في جسمه منطقة تدعى "البطن". كان كل تفكيره قد تجمع عند حنجرته، جسمه – أحس به – قد أصبح حنجرة تبعث الأنغام:

"رضوان حسن الجواري إبوجنتك ودعه".

هاهي ليلتك يا "كريم"، يجب أن تثبت لهم مرة أخرى أن صوتك ما زال عذباً وجميلاً، بل هو أكثر عذوبة من الليلة الماضية، يجب أن تدفع بالخجل والخوف خارجاً عنك، اتركهما هنا في هذا المكان الذي حاول أن يعيقك عن الوصول إليهم، إنهم أناس طيبون، أكد مع نفسه، سيستمعون إلى أغانيه ويشترون منه كل ما في صندوقه الصغير، هكذا وعدوني ليلة البارحة.

تذكر تلك الليلة، كانت الأولى، تجمع حوله كل الجنود، عشرين، ثلاثين، لا يعرف كم كان عددهم، ثلاث حافلات عسكرية، عرف أنهم يأتون المدينة بعد الدوام الرسمي من معسكرهم الذي يبعد عنها بنصف ساعة، يشترون ما يحتاجونه إليه، يذهب قسم منهم إلى السينما، وبعضهم إلى الحمام العام، فيما يتنزه البعض الآخر في شارع الحبوبي، الشارع الوحيد في المدينة الذي يمتلىء بالشباب والشابات مساء كل يوم، وفي الساعة التاسعة بالضبط يجتمعون عند موقف الحافلات، حيث يغادرون المدينة إلى معسكراتهم.

وها هو يدفع بخطاه نحوهم بصندوقه الصغير، فيما الصندوق يضرب جسمه الصغير في المنطقة الوسطى بتردد يتجاوب وسرعة خطاه.

"والورد قدم لوايح واشتكه وادعه ".

أحس أن صوته عذب وجميل. في البداية لم يتقدم أحد ليشتري شيئاً ما منه، كان الجميع منشغلاً في أحاديث لم يفهم منها شيئاً، كان ينادي بأعلى صوته ليروّج لبضاعته:

- سيكاير، حَب، علج.

دون فائدة.

كان البعض من الجنود قد صعد داخل الحافلة العسكرية، والبعض الآخر قد افترش رصيف الشارع في تجمعات صغيرة انتشرت بينهما الضحكات، والنكات الخفيفة، فيما

تجمع البعض أمام باب الدكان الوحيد في المنطقة الذي يبيع السكائر، والحَب، والحلويات، عندها طلعت في ذهنه تلك الفكرة الجهنمية، كيف تذكّر ذلك، ولكن، هل يمكن القيام بمثل هذا؟ لم يجرب نفسه أمام الآخرين – أكد مع نفسه – كان قد تعود الغناء مع نفسه، أو أمام والدته فقط، أما هذا، بين وسط هذا الحشد من الجنود، لا، لا، – ردد مع نفسه – ثم تساءل:

- كيف يبدأ الغناء، كيف؟

كانت الحيرة قد وجدت لها، وقتذاك، مكاناً في نفسه، أحس بوجهه يشحب، يغادره الدم. أحس بالدم يفور في معدته بالضبط. بلع ريقه أكثر من مرة. حمل صندوقه الخشبي وابتعد قليلاً عن أقرب تجمع منه، وبإرتعاشة أحس بها تتردد على شفتيه الصغيرتين تحت ضوء مصباح الشارع الأصفر الشاحب، ردد مع نفسه البيت الأول لموال كثيراً ما سمعه من الراديو بصوت أحد المطربين. ردد كلماته بتناغم خافت أول مرة، وشيئاً فشيئاً أخذ صوته يرن في إذنيه، ثم دون وعي منه كانت كفاه تحيطان بإذنيه وهما تنغمان صوت غنائه.

بدأ غناؤه باستحياء في ظلام هذا الليل، وكانت حلقات الجنود الصغيرة قرب حافلاتهم العسكرية تتزايد، غابت الضحكات، انقطع خيط الحديث بين الأفواه التي أكلها التثاؤب، خيم سكون مطبق تحت ظلام الليل، ترجل بعض الجنود من الحافلات بعد أن نفضوا عن أعينهم ما حل بها من نعاس خفيف، مد صاحب الدكان رأسه الأصلع إلى خارج دكانه، نهض بعض الجنود من أماكن جلوسهم على الرصيف البارد، كان صوته قد ملأ الفضاء المحيط بهم.

"والورد قدّم لوايح واشتكه وإدّعه
ويگول انت الورد ...".

وامتدت الأيدي، وهي تبتاع من صندوقه الصغير علب السكائر، والعلك، والحَب، بهدوء تام كي لا تثلم صوت هذا المغني الصغير، فيما كان صوته يصدح في فضاء الشارع تحت خيمة الظلام الليلي الهادئ.

كان صوته يشق سكون الليل، وفي اللحظة التي أحس بها أن صوته قد امتلك كل حواس الجنود ومشاعرهم، كانت أحشاء صندوقه الصغير قد تناثرت في وسط الشارع، شاهد صندوقه يطير بركلة مباغته من قدم الرجل الأصلع. انفرش الذهول على وجوه الجنود، وحبست المفاجأة غير المتوقعة الأنفاس، فيما كان صوت كريم ما زال محلقاً في سماء المدينة.

"ويگول انت الورد، وشلون...".

امتدت يد ضخمة إليه، سحبته من بين الحشد. كانت الكلمات المنغمة تصدح في إذنيه، وكان الإصرار على الغناء بادياً على ذلك الصوت الذي أخذ يمتلك كل زوايا الشارع، لكنه، وبتصاعد النغم، أحس بشيء يخدش صفحة تلك العذوبة، سكين حادة تنغرز في القلب وفي الإذنين، تقطعت الأوتار الصوتية، عندها تجمد السكون على كل شيء.

تصاعدت أصوات الاحتجاجات من الحشد. أمسك اثنان من الجنود بالرجل الأصلع ودفعاه إلى داخل دكانه. امتدت أكثر من يد إلى إسفلت الشارع وهي تجمع ما تناثر عليه من أشياء الصندوق الخشبي، وفي ثوان قليلة تجمعت الأشياء مرة أخرى في الصندوق.

كان كريم واقفاً بين حشد الجنود، منتصباً، رافع الرأس:

"ويقول أنت الورد و شلون تشتم ورد".

جاءه صوت من بين الحشد:

- سنشتري منك فقط.

سمع جندي آخر يقول:

- غداً سنلتقيك هنا.

أكد ثالث:

- نحن نحميك من هذا الرجل الجلف.

صعد الجنود إلى حافلاتهم، وقبل أن تتحرك عجلات أول حافلة، صاح كريم بالجنود وهو بلوح لهم بيده:

- سآتيكم غداً، سأغني لكم فقط.

ها هو كريم يدفع بخطاه إلى حيث تراءت له تجمعات الجنود على الرصيف، فيما كانت الحافلات قد توقفت عن الاشتغال وقد خيم داخلها الظلام.

***

(*) نشرت في جريدة بابل في النصف الثاني من التسعينيات.

"يوم شتائي قائظ"(*)

في هذا اليوم من أواخر شهور فصل الشتاء التي ينزل فيها المطر في مدينتي على شكل موجات بعيدة بين إحدى والأخرى. في هذا اليوم، وصل المواطن "شرّاد" من دولة "إ" مشيا على الأقدام كي لا يخضع لفحص اللجنة الصحية الموجودة على الطريق من قبل المواطنين الثائرين الذين يستنكرون فتح المنافذ الحدودية مع دولة "إ"، وصل إلى منطقته الريفية شمال مدينة "ن" الجنوبية أثناء الليل. طرق الباب مثل رجل مطارد، وهو كذلك. فتحت زوجته باب الدار. تبادلا التحية. ونام في فراشة بعد أن رفض استيقاظ أبنائه.

في الصباح، بعد أن سلم على أبنائه، وتناول فطوره المتكون من بيضتين مسلوقتين واستكان شاي، خرج ميمما صوب مضيف القرية، إذ لم يكن يفكّر بالمرض، ولا بالعدوى، أو الإصابة، لأنه لم يكن يشعر بأي شيء، فما زال قويا ويستطيع آن يهزم العشرات. وجد في المضيف أبناء القرية متجمعين وهم يستمعون إلى مواعظ الملّا عن المرض، وقد وضع عمامته على فخذيه، وبدت صلعته الكبيرة تشع تحت ضوء النهار الذي تتسلل خيوطه إلى المضيف من خصاصات القصب والبواري. قال:

- يقول الله في القرآن "إدعوني استجب لكم". وقال كذلك: "وإذا مرضت فهو يشفين". فالله هو الشافي ولا يهمنا أي شيء.

وقد جاء في الكافي: (عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن ابن محبوب عن النضر بن قرواش

الجمال، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الجمال يكون بها الجرب أعزلها من إبلي مخافة أن يعديها جربها، والدابة ربما صفرت لها حتى تشرب الماء؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: إن أعرابيا أتى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله، إني أصيب الشاة والبقرة والناقة بالثمن اليسير وبها جرب، فأكره شراءها مخافة أن يعدي ذلك الجرب إبلي وغنمي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: يا أعرابي فمن أعدى الأول؟ ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا شؤم، ولا صفر، ولا رضاع بعد فصال، ولا تعرب بعد هجرة، ولا صمت يوما إلى الليل، ولا طلاق قبل نكاح، ولا عتق قبل ملك، ولا تم بعد إدراك)[1]. ثم قام الملة وقال للحضور:

- لنصلي لله ركعتين لكي يجنبنا المرض.

قام الحضور في المضيف، ورتبوا صفوفهم للصلاة. كان الشيخ ووجهاء العشيرة في المقدمة، وأصبح "شرّاد" الذي قدم من دولة "إ" في المؤخرة، أو هكذا وجد نفسه. وراحوا يصلون صلاة الشفاء كما قال لهم الملّا.

كان في المضيف "رحيم" الذي يضع كمامة على أنفه وفمه، ولم يمد يده ليسلم على "شرّاد". وكان يعمل بوظيفة موظف صحي في المستوصف القريب من القرية. قال للملّا بعد أنهوا صلاتهم:

- شيخنا ونعم بالله، والذي ذكرته على أنه حديث للإمام فهو حديث موضوع ومكذوب عليه، علينا أن نتجنب هذا المرض كي لا تسري عدواه لنا، علينا أن نتوقاه بشتى الطرق، مثل الغسل بالصابون دائما، ووضع الكمامات على أنوفنا وأفواهنا، ونلبس الكفوف، وعلينا أن لا نلامس أي شخص

(١) روضة الكافي: ١٩٦.

جاء من دولة موبوءة بالمرض. وكان يقصد بكلامه هذا "شرّاد".

فصاح شرّاد" قائلا:

- أتعني بكلامك إنني مصاب بالمرض؟

ردّ عليه بحزم:

- كان عليك أن تذهب إلى المستشفى لكي تخضع للفحص.

قال شرّاد بإستهجان:

- وماذا أفحص؟ أنا غير مصاب، وأنا أصلي وأصوم، والملّا يشهد بذلك.

رد الموظف الصحي، رحيم قائلا:

- ونعم بالله، وأنا أشهد لك بذلك، أنت تصلي وتصوم، وهل هذا يكفي أمام هذا المرض، المرض شيء دنيوي، وكان عليك أن تراجع المستشفى ليتأكدوا من عدم اصابتك بهذا المرض.

تكلم الملّا قائلا:

- ابني "رحيم" ألا تعرف أن الله قال في كتابه العزيز:

بسم الله الرحمن الرحيم"وإذا مرضت فهو يشفين" فالله هو الشافي، ولا تدع صاحبك يقلق على صحته. عند هذا الحد من الحديث قام الشيخ، وقام من بعده الناس الحضور وقد تفرقوا إلى أعمالهم.

خرج "شرّاد" وذهب إلى بيت والده، وهناك أعطاهم الهدايا التي جلبها من زيارته للدولة المجاورة، ثم عاد إلى بيته، وفي طريق العودة التقى بمجموعة من الأصدقاء، وتبادل معهم التحية، فيما ذهب "رحيم" إلى المستشفى وأخبر مديره بوصول "شرّاد" من دولة "إ" وعليهم أن يفحصوا القرية، لأن "شرّاد" اختلط بأهلها.

في جو ينزل فيه من السماء رذاذ مطر لا يهدأ، والشمس ما زالت لم تصل الى كبد السماء، حضرت المفرزة الطبية

وهم مستعدون صحيا لفحص قرية "شرّاد"، مع مفرزة من قوى الأمن الداخلي الذي يرتدون الكمامات والكفوف، وأحاطوا ببيوت القرية، وقد حاول "شرّاد" أن لا يخرج من داره، إلّا أن المفرزة الطبية جاءت مباشرة إلى داره، وأخضعته للفحص، وظهر انه مصاب بهذا الفيروس. وبدأ فحص أبناء القرية فوجدت المفرزة الطبية ان أغلب أهلها مصاب بهذا الفيروس، ومن ضمنهم الشيخ والملّا. تم حجز القرية صحيا وأعتبرت منطقة موبوءة بالفيروس، فيما عزلوا كل الذين لم تصل لهم العدوى، خارج القرية، حيث وضعت لهم "كرفانات"، مع وجود مفرزة طيبة تراقب وضعهم الصحي.

***

كان الشيخ الذي يصدق بما يقوله الملّا، والملّا، قد أنتقلت لهم العدوى من "شرّاد" فماتوا في اليوم الرابع، إذ توفي الشيخ الذي نزل "شرّاد" على يديه وقبلها عدة قُبل. ومات الملّا الذي سلم على "شرّاد" واستقبله بالأحضان. ومات زاير كاظم ذو الثمانين عاما. ومات بعض كبار السن. وشفي من تم حجرهم في بيوتهم. وظل "شرّاد" الذي شفي من المرض يلوم نفسه كل عمره على ما قام به من فعل ولم يصدق قول رحيم، فيما صدق قول الملّا.

***

(*) نشرت في جريدة "الحقيقة"، وجريدة "العراقية" التي تصدر في استراليا.

"تحولات نائم نسيَ أن يتدثّر"[*]

((رأيت أنا جوانغ زي مرة في منامي أني فراشة ترفرف بجناحيها في هذا المكان وذاك، تشعرني بأني فراشة. أما ذاتي الإنسانية فلم أكن أدركها قط. ثم استيقظت على حين غفلة وهأنذا منطرح على الأرض رجلا كما كنت، ولست أعرف الآن هل كنت في ذلك الوقت رجلا يحلم بأنه فراشة، أو أنني الآن فراشة تحلم بأنها رجل.)). - الفيلسوف الصيني جوانغ زي-

كان النائم مرعوبا في منامه، قلقا، لا يهدئ، يرتجف من شدة الخوف والبرد الصقيعي الذي خيّم على حلمه، كما خيّم في أرجاء الغرفة التي ينام تحت سقفها. كان هذا النائم، يرى الصبي الذي لم يخرج مرة واحدة خارج البيت، واذا خرج لم يمد يده ليسلم على من يريد أن يسلم عليه، بل يكتفي بإيماءة صغيرة من رأسه ذو الشعر الأسود الكثيف كخلية نحل على جذع شجرة، كوالده، وجدّه. كان يراه دائما وجمع كبير من النساء وهو يتحدث لهنّ، لم يعرف فحوى الكلام الذي يقوله. هذا الصبي، وللمرة العاشرة يشكّل مع مجموعة من الناس الذين فكرهم مساير لفكره، أو بلا فكر، جمعية "العتاگّين" التعاونية، مسؤولة عن الأشخاص الذين يتعاطون بيع وشراء المواد المستعملة، والعاطلة، والقديمة. فيما اجتماعه مع النساء يحدث بوجود الجمعية، أو عدم وجودها.

في الحلم البارد، كان النائم يرى الصبي مع والده في أول تشكيل لجمعية "العتاگّين"[1] التعاونية. وكان والده هو الذي أطلق عليها هذا الاسم الذي رآه مميزا بين الجمعيات، إذ يختار المتميز من الأسماء، والأكثر تأثيرا على العامة من الناس.

ترأس والده هيأتها الادارية الأولى، وعتيقها من الاشخاص، إلّا ان مرض السرطان الذي نخر جسمه كالسوس قد قضى على وجوده في تلك الجمعية، وفي الحياة أيضا، فمات بذلك المرض، فإنتقلت الرآسة بحكم وصية المتوفي الى الصبي مع وجود أشخاص أكبر منه سنا في تلك الجمعية التي عرفت بين الناس، واشتهرت. وكان هو فتى أخضر العود، وضيء الوجه، ناعم العظام، طريّها.

بعد فترة زمنية تحسب على أصابع يد واحدة من الأشهر، أضاف هذا الصبي ذو الأسنان اللبنية، كما رأى النائم في الحلم، بعض الرجال الآخرين للجمعية، وغيّر اسمها، فأضاف لفظا جديدا له دون أن تغيب عنه علاقتة بالعتيق. وعدّل من شعارها في الشكل والألوان المختلفة.

قامت هذه الجمعية بنشاط في مجال بيع العتيق من الأجهزة القديمة، والعاطلة، والمستخدمة، فتبنى بعض افكارها مجموعة من الناس الذين يمكن أن نصفهم "بالعتاگّة"، والذين يحنون الى الماضي، فكثر أعضاءها، وفتحت لها فروعا في محافظات العراق، وأقضيتها، ونواحيها، واختارت بيرغا لها، ينتصب واقفا بسارية معدنية بلون ذهبي خلف رئيسها، وبيرق صغير يشبهه على المنضدة التي يجلس اليها الصبي، رئيس الجمعية.

(١) العتاگين: جمع عتاگ وهو الشخص الذي يشتري المواد المستعملة والقديمة

بعد فترة قصيرة، كما رأى النائم في الحلم، هذا الصبي لم يرتح الى هذه الجمعية، فقد كان قلقا لا يهدأ له بال، ولا استقر له قرار. وكان بين فترة وأخرى يغيّر شعار الجمعية دون أن يبتعد عن عالم الأجهزة المستعملة، والعاطلة، والقديمة، فقام بتغيير الكثير من أعضاء هيأتها الادارية، وغيّر بعض علامات شعارها، وبيرقها.

أخيرا استقر رأيه على أن يضيف كلمة "العراقية" الى اسم الجمعية، لأن الزمن تطلّب ذلك، فأصبح اسمها جمعية "العتاگين" العراقية التعاونية، لانه وجد لفظة "العراقية" مفقودة من شعار الجمعية. وغيّر في شعارها، إذ رسم خريطة العراق كخلفية لشعار الجمعية. إلّا ان هذه التغيرات الأخيرة جعلت أعضاء الهيئة العامة يخرجون منها خاصة بعد اكتشاف زيف ادعاء الجمعية بالعراقية كذبا. كما رأى النائم ذلك في هذا الحلم الصقيعي الذي فزّ منه مرعوبا، كما عاش الرعب فيه.

***

عند هذا الحد وهو ينظر لشعار الجمعية الجديد الذي يعلو باب بناية الجمعية، قرصته برودة جو الغرفة التي كان ينام فيها، ففزّ مرتجفا من منامه في فجر يوم بارد، كمن لدغته حية سامة، وبالكاد كان يفتح عينيه الدبقتين، وقد خرج صوت إصطكاك أسنانه بسبب البرودة الصقيعية التي اجتاحت المكان.

كان جو الغرفة باردا كالصقيع، والفراش الذي كان ينام عليه مثل ثلاجة كهربائية فيها علب مملوءة بالماء المتجمد، والثلج مكدس في جوانبها، ودثاره الصوفي منزاحا عن جسمه بمسافة بعيدة عنه، وقد كان نصف هذا الدثار خارج السرير الحديدي الذي كان ينام عليه، وقميص بجامته مرفوعا الى أعلى ظهره فبان جلد ظهره للعيان. شعر ان

جسده ظل يختض بسرعة مثل جهاز إتصال موضوعا على وضع الهزاز.

كان الفصل شتاء وقد تساقطت الثلوج على المدينة بكثرة، والثلج في كل مكان منها يغطي مظاهر الطبيعة فيها، والبيوت، والسيارات، حتى بات أي مكان خارج البيت هو أبيض كالقطن. كانت السماء تندف الثلج مثل نثار من القطن الجديد. كان قد فزّ وبلعومه جافا رغم سقوط الثلج في الخارج، وبرودة الجو في الغرفة. بلع ريقة أكثر من مرة حتى استقام له من جديد، فيما أسنانه تصطك سريعا بصوت مسموع، كصوت نزول حبوب العدس على سطح معدني.

كان كل ما رآه في منامه واضحا، إلاّ ان تغيّرات الصبي لاسم وأهداف الجمعية، ولهيأتها الادارية، وشعارها، وبيرقها، هو غير مفهوم لعقل الشخص الذي حلم ذلك الحلم، فظل يتساءل مع نفسه: هل كنت أحلم، أم ان البرد الصقيعي قد صوّر لي الأشياء هكذا؟

حمد الله وشكره كثيرا لأنه لم يكن الصبي ذاك. فالنائم، الحالم، لم تكن عنده جمعية كجمعية "العتاگه" العراقية التعاونية، ولا هو رئيسها. ولا كان دائما يغيّر في هيأتها الادارية، وفي شعارها، وبيرقها. انه فقط رأى كل هذا عندما كان نائما في جو بارد صقيعي غير متدثّر، كان عليه فقط أن ينذر الناس ويحذّرهم من هذا الصبي اللعوب.

***

(*) نشرت في جريدة "طريق الشعب" ع/٥١ في ٢٠٢١/٢/٢٣.

"أحزان دائمية"(*)

آخر ما رددته مكبرات الصوت في منطقة معامل الطابوق هو كلمة "الفاتحة على أموات المسلمين، والى روح المرحوم الذي نحضر مأتمه، صاحب المعامل الثلاثة".

بهذه الكلمات بدأ "القصه خون" حكايته في المقهى العام في المحلة الصغيرة وقد تزاحم أهلها فيها كبارا وصغارا، تاجرا وفقيرا، عاملا وفلاحا، استاذا وطالبا، بعد أن أغلقوا التلفزيون الذي يبث الأخبار اليومية، والأغاني، ومسلسلات الحب. تابع "القصة خون" حكايته وهو يقرأ في كتاب فرشه أمامه في حضنه قائلا:

((- خيّم سكون على الحاضرين داخل خيمة العزاء كسكون مقبرة السلام(١) في النجف ظهيرة يوم صيفي حار لا تسلم الحمير من بول الدم فيه لحرارته الجهنمية، وصعوبة الحصول على الهواء من المنخرين.

كان السكون وحشيا، وقاتلا. "نشّ"(٢) أحد الحضور ذبابة كانت تحوم حول وجه الأسمر، الذابل، مثل "نومية بصرة"(٣) يابسة. نهض بعض الصبية بصواني استكانات الشاي الحار، وطافوا بها بين الحضور، وراح رجل متوسط العمر يضع على رأسه يشماغ قديم، ومتّسخ، وبيده اليمنى "دلة"(٤) القهوة

(١) مقبرة النجف: هي مقبرة لعموم الشيعة في العراق في المدينة التي يقام فيها ضريح الامام علي.

(٢) نشّ: ابعد عنه الذباب.

(٣) نومي بصرة: نوع من النومي الحامض، يابس، طعمه حامض يوضع في الحساء او يعمل منه شراب بارد أو حار.

(٤) دلّة: الاناء الذي تصنع فيه القهوة، ويسمى "ركوة".

وفي اليد الثانية ثلاثة فناجين صغيرة يوزع القهوة المرة على الحضور. مسح رجل كبير السن من الجالسين عينية من بقايا دمع كان قد نزل على خديه الجافين من كل طلاوة، وطراوة، فيما كان "حسام" الإبن التوأم لثلاثة من الأخوة أبناء الوجيه صاحب المعامل الثلاثة الذي يقام لأجله المأتم، يقف خارج خيمة المأتم التي خيم عليها حزن بدا على وجوه الحاضرين انه حزن وقتي سيزول عند الخروج منها. كان يدخن سيكارة قد وصل جمرها المتقد الى عقبها الأصفر، وهي تحمل اسم أجنبي معروف. وكان التوأم الثاني "فتاح" يجلس على كرسي نايلون في مقدمة خيمة مأتم العزاء، وهو يلتفت يمينا وشمالا دون هدف يذكر إلّا ان تفكيره قد احتواه أمرا واحدا فراح يؤثر على بصره فتضبب ما كان يراه أمام عينيه.

ما زال الصبية بصوانيهم واستكانات الشاي يدورون على الحاضرين، والرجل يوزع القهوة المرة عليهم، فيما كان التوأم الثالث "علي" يقف قبالة الشيخ الذي أنهى للتو رفع أحد جوانب السجادة المفروشة على أرض خيمة العزاء علامة على انتهاء أيام المأتم السبعة وهو يردد في مسامع الشيخ بصوت عال: وفقك الله يا شيخ، نتمنى أن يكون هذا المأتم خاتمة الأحزان. عندها أحس بكوع يد رجل آخر يضربه في خاصرته، وصوت قد همس في أذنه: لاتقل هذا للشيخ لأنك تقطع رزقه.

كان الأخوة الثلاثة التوائم هم كل ما تركه الأب صاحب المعامل الثلاثة للطابوق من ذرية بعد أن رحل الى عالم آخر خارج عالمنا المسود فضائه بدخان هذه المعامل، فاستلم كل واحد منهم مسؤولية معمل للطابوق بعد أن وزعها عليهم والدهم قبل أن يموت. كان كل معمل طابوق فيه مجموعة من العمال، والحمير، والآليات،. وكانت هناك مساحة من

الأرض كبيرة تشترك فيها المعامل الثلاثة لصبّ "لِبَن" الطابوق قبل شيّه.

كان الشيخ بعمامته التي غطت شعر رأسه الحليق، ولحيته التي شابها في مناطق عديدة شعر أبيض، ومسبحته السوداء ذات المئة حبة وحبة واحدة، قد رافق الإبن التوأم مشيا على الأقدام بعد أن ختم المأتم بصوته الشجي، وشرب فنجان القهوة على روح المتوفي، وطوى طرف السجادة المفروشة علامة الى ذلك، الى بيته حيث مُدت أمامه مائدة عريضة فيها من المأكولات ما لذ وطاب، وما تشتهي الأنفس. وعاد الإبن الآخر "فتاح" الذي كان تفكيره مشغولا في أمر واحد فتاهت أمام ناظريه رؤية كل شيء بسيارته "المارسيدس" الى بيته في المدينة. وركب الإبن الآخر "حسام" سيارته نوع "لادا"[1] وعاد الى المدينة، وترك كل شيء خلفه، ولم يشغل تفكيره بشيء وهو يدخن بشراهة.

***

قال الشيخ بعد أن نزع عمامته وقد أنهى طعامه، ولعق أصابع يديه بفيهه:

- سفرة عامرة يا حاج، وخاتمة الأحزان.

شكره الإبن التوأم وأردف قائلا يسأله عن أمر تناقشا فيه وهم على مائدة الطعام:

- ها.. ماذا قلت يا شيخ؟

أجابه الشيخ وهو يحوقل:

- قلت لا حول ولا قوة إلّا بالله، ولا إله إلّا الله... يجب أن تبني جامع وسط بيوت عمال معملك ليكون قريبا منهم، وسأديره أنا. وعلى عمالك أن يؤدوا ما عليهم من فرائض الى الله، ورسوله، والأئمة الأطهار.

(١) لادا: نوع من السيارات الروسية تعمل في العراق.

وافقه الإبن التوأم على ما قال، وجرّ أهة طويلة وقال:
- وماذا بشأن اخوتي التوأم، يا شيخ؟
رد الشيخ قائلا بعد أن أدخل منديله القماشي في جيب "جبته" الحالكة اللون:
- انا لا أعرف نوايا أخوك "حسام" الدينية، فهو لا يتكلم معي، ولم أره يصلي أو يصوم، إلّا اني أعرف نوايا أخيك "فتاح" الدينية، رغم انه لا يصلي ولا يصوم مثل "حسام"، في انه لايهمه هذا الأمر، فعمّاله أحرارا فيما يعملون بعد انتهاء عملهم.
قال علي حزينا:
- يجب أن نستميل عمالهم لصفنا.
ردّ الشيخ قائلا:
- سأرى ذلك في الاسبوع القادم عندما أزور المدينة.

***

كان المطر قد نزل على أرض المعامل الثلاثة فبللها وملأها بالبرك، وبالطين، والوحل حتى بات السير فيها صعبا.
قال الشيخ وهو يعدّل عمامته على رأسه للرجل الواقف أمامه من عمال معمل التوأم "علي"، فيما زوجة العامل تقف خلفه، وقد إلتفّت بعباءة نسائية سوداء كالحة اللون، وقد اتسخ ذيلها عباءتها وقدميها بالوحل، والطين، دون أن تلبس شيئا بهما، فبدا عليهما الفقر والعوز، والطفل المريض في حضن الشيخ يبكي بدموع حقيقية، ويتلوى من الألم:
- يا أبو مهدي، لازم تضعون هذا الحجاب الذي قضيت ليلة البارحة وأنا أعمل عليه، في رقبته دائما مثل قلادة الذهب التي تتدلى من جيد صبية.
تحسرت الأم وقد مسحت دموع عينيها التي انسابت على خديها بذيل عباءتها الكالحة، والمتسخة بالطين، والوحل،

وجرّت آهة استطاعت أن تكبح صوتها عندما ذكر قلادة الذهب التي لم تحصل على واحدة منها. وخرجا من باب غرفة الشيخ، والطفل في أحضان أمه يتلوى، وهي تبكي.

***

انزاحت الغيوم السوداء من على صفحة السماء وبقيت فيه بعض البقع المتحركة، وسكتت السماء من ارسال مطرها عصر ذلك اليوم الذي كان فيه "فتاح" يجلس في غرفته، وراح يدخن سيكارته بإنتعاش لذيذ، فيما تجمهر عمال معمله الذين جاؤوا ليناقشوا معه أمر الصلاة في جامع الحاج أخيه التوأم، فأجابهم بهدوء تام:

- هذا أمر يعود لكم، أن شأتم صليتم فيه وحضرتم محاضرات الشيخ، وإن شأتم أن لا تحضروا، هذا شأنكم، وانتم أحرار بما تفعلوه، المهم أن لا يتوقف العمل. أنا أريد الانتاج مستمر.

خرج الجميع من غرفة "فتاح"، وخرج معهم صخبهم، وصياحهم، وصراخهم فهدأ كل شيء، ولم يبق سوى تصاعد دخان سيكارته في فضائها.

***

كان صوت التوأم "حسام" قد خرج من غرفته المشيّدة بطابوق المعمل قرب مدخله، بنوافذها الكبيرة المطلية باللون الأبيض، والمغطاة بستار مخملية خضراء، وقد تجمهر العمال وقوفا حول منضدة جلوسه. قال:

- اريد أن يكون العمل مستمرا في كل يوم، ولا أقبل أن يتوقف للحظة واحدة. وأريدكم أن تأتوا له نشطين، وقد نمتم جيدا، وغسلتم أجسامكم كذلك لتكونوا أكثر حيوية، ونشاط، ولا أسمح أن تقضوا وقتكم مع هذا الشيخ الأمي، والحضور في جامعه، أو السماع لما يقوله من خرافات، وترهات، لا

توكلكم خبزا، العمل هو المهم، اعمل لكي تستمر عجلة الحياة.

***

ظل العمال في المعامل الثلاثة يعملون ليل نهار، والمعامل تنتج الطابوق لتبنى به الدور والمحال، حتى انتبه التوأمان "فتاح" و"حسام" الى أن الشيخ الذي وصفه التوأم "حسام" بالأمي قد سيطر على عقول عمال المعامل الثلاثة من خلال صديقه الذي قدم معه من المدينة، والذي يحمل سكينا صغيرا يطوى الى داخله، فرأى "حسام" انه لم يستطع السيطرة على عماله كما كان سابقا، واذا منعهم من ارتياد الجامع فإنه سيخسرهم الى الأبد، من خلال ما يدسّه في عقولهم هذا الشيخ من قصص، وخرافات، وأساطير، أو بفعل السكينة الصغيرة التي تطوى الى الداخل.

***

(*) نشرت في جريدة "كواليس" الجزائرية ع/٣١٢٣ في٢٠٢١/٣/٧.

"أوراق متعبة من مفكرة رجل مهموم"(*)

رفع حاجبيه الكثين، ولا تزال عيناه تنظران إلى ربطة حذائه المفتوحة، ومرت أمامه الذكريات تنثال كشريط سينمائي، وتراءت له الصور الجميلة في حياته، ربما كانت جميلة بالنسبة له ومن زاوية نظر خاصة. كان صغيراً وقتها، صغيراً حافي القدمين، ودشداشته السوداء الممزقة، والكالحة. كان صغيراً يسير مع أخته الكبيرة في أحد الأزقة الضيقة التي توصلهم إلى السوق عندما أمسك بأخته شاب أسمر حليق الشارب وانهال عليها تقبيلا وهي طائعة كطفل يرقد في حضن أمه.

يومها تعلم حفظ السر. تعلم ألّا يقول أي شيء تراه عيناه حتى ذلك الشيء الذي يشعر به الآن، وفي بعض الأحيان. إنه مقرف، وربما دعته نفسه أن يتقيّأ على الرغم من أنه تطور إلى شيء أكثر خطورة من تلك القبلات التي تنهال على خدَيّ شقيقته من كل شاب يصادفهم في الطريق، حتى صديقه الصغير أحمد، ذلك الطفل الذي لا يتجاوز العاشرة من عمره، كانت شقيقته عندما يلاقيها في الزقاق، تنهال عليه بالتقبيل وكأنه ابنها، وكانت اللذة تتقد في رأسها حتى أنها لا تبخل بضمه إلى صدرها قائلة له والنشوة بادية على شفتيها المحمومتين واللتين ترتجفان كسعفة في مهب الريح: سوف أتزوجك عندما تكبر. وتسأله مستفسرة كأنها تبحث عن شيء في عيني هذا الطفل الذي سلّم نفسه بيدها لا يجرؤ على الكلام: ماذا يفعل والدك في الليل؟

لقد امتلأ جيبه بالدراهم، وفكّر لو تعود تلك الأيام ويخرج مع شقيقته ليملأ جيوبه بهذه الدراهم، فكّر، لتعد تلك الأيام وليترك شقيقته بين أحضان الآخرين ويذهب هو ليبتاع من علوان أبو الحلويات"مصاصة" يتلذذ بطعمها الحلو، أو ليشتري كرة يلعب بها في زقاقهم الموحل مع أصحابه. فكّر لو تعود تلك الأيام لينافس أترابه من أولاد الذوات في المدرسة بأيهم أكثر بذخاً، هو ابن العامل المعدم، مسكين والده، لماذا لا يسألها عن هذه الملابس الجميلة، من أين تأتي بها؟ مسكين. وفكّر بأمه الحنونة، يا لها من امرأة، مسكينة أنت يا أماه.

ومرت بخاطره تلك الصورة الجميلة في أحد البيوت الخالية من السكان وكأن كل شيء مدبّر لذلك. كانت الغرفة، والدار ملتفة برداء من السكون. يحس بأصوات تأتيه من اللانهاية تطرق طبلة إذنه، و"فوزية" شقيقته، لا تزال تخلع ملابسها حتى أتت إلى آخر قطعة من ملابسها الداخلية. لا تزال تلك الصورة عالقة برأسه وهو يلعب بكرته الصغيرة. تذكر ذاك الوجه الأسمر الحالك السمرة، وذلك الشارب المعقوف الطرفين، وتلك البسمة الصفراء التي يهديها إليه هذا الأعور كجائزة مع الدرهم الفضي، تمنى لو لم تكن هذه المرأة أخته لارتمى بين أحضانها وشبع من هذا الكنز الممتليء.

مرة جاء لشقيقته بعد أن ارتدت ملابسها ومسحت وجهها المصفر قائلاً:

- سأخبر والدي بذلك!

فإبتسمت، تذكر تلك الابتسامة الجميلة الخبيثة:

- عندما تخبره فإنك سوف لا تحصل على الدراهم مرة أخرى.

الدراهم، رنّت هذه الكلمة في إذنه الصغيرة كأنها نغمة وتر تشق سكون الليل وهيبته.

***

لا تزال عيناه تنظران إلى ربطة حذائه المفتوح دون أن يتجشم عناء الانحناء ليشدها.

لقد انتهى كل شيء بالنسبة إليه. توفي والده، ولحقته والدته بعد أشهر، حيث لازمها مرض السكري. أما فوزية فقد رحلت إلى جهة مجهولة.

غابت عيناه في وسط فتحة حذائه الأسود الملوث. يا لها من أيام جميلة. تمنى من كل قلبه أن تعود تلك الأيام، لو عادت فوزية ودراهم الآخرين لجاء بأخته وتركها بأحضان أبي سليم، خزينة وكنز من الدراهم، وجيب هذا الرجل كأنه آلة لصنع الدراهم. لو تعود فوزية لاشترى له بيتاً وسيارة.

- وا أسفي على أموال هذا الرجل، إنه يعطيها لنساء قبيحات. لو تعود تلك الأيام، لو تعود، لامتلأ جيبه بالنقود، وامتلأت بطنه الخاوية بأصناف المأكولات.

ومرة، فكر بالبحث عن فوزية، خيل له أنه وجدها بين ثلة من صويحباتها الجميلات:

- أهلاً، لقد عدت، كريمة، لقد عاد أخي فوزي.

- فوزية، أرغب بقضاء ساعة مع هذه الفتاة.

يا لها من حياة جميلة، وماذا بعد؟

سأبحث عنها، سأجدها، سأجد فوزية.

***

ومرت الأيام.

ولا تزال عيناه مسمرتين على ربطة حذائه المفتوح. بحث حتى أنهكه التعب والسهر، وخوت بطنه من شدة الجوع. سأل كريمة – الراقصة في الملهى – عن أخته فوزية، فأجابته بأنها تركت الملهى قبل اسبوعين ورحلت إلى مكان

مجهول. وأجابته حمدية صاحبة أكبر جسم بين بنات الليل وهي مرتمية بين أحضان شاب رفيع كأنه الهيكل العظمي ولا يزيد وزنه عن خمسين كيلوغراما وهو يداعبها. أجابته بالنفي، وبصقت على وجهه لأنه لم يطرق الباب عليهم ويستإذن بالدخول.

مسح وجهه من بصاقها، وراح يهرول خارجاً إلى الشارع لا يعلم إلى أين ذاهب.

ومرة دعته صديقة شقيقته، وزميلتها في العمل لقضاء ليلة حمراء بين أحضانها رداً لإحسان شقيقته التي جاءت بها إلى هذا العمل فتربعت على هذا العرش الجميل.

وقضى ليلة بين أحضان سميرة ذات الأسنان المركبة، والتجاعيد التي حفرت على وجهها وكأنها تروي له قصة الصراع الحياتي الذي لاقته هذه المرأة، بل هو صراع قد أدى بشقيقته لان تترك بغداد إلى مدينة أخرى لتستشف منها الدفء بين أحضان الرجال. أنهم أنصاف رجال أولئك الذي لا هم لهم سوى الارتماء في أحضان نساء يبعن بدراهم معدودة اللذة التي لا تشاركهم فيها وكأنها قطعة جليد. وعند الصباح تركها بعد أن أحس بماء حار يجري بين فخذيه، في كل لحظة، وفي أي مكان يحل فيه.

نهض فوزي بعد تعب وعناء تجشمه لشد رباط حذائه، فأحس بحرارة الماء الجاري بين فخذيه، وعقده الحياء، ثم نظر حوله وخرج.

***

(*) نشرت في جريدة الراصد عام ١٩٧٢.

- نشرت أول قصة قصيرة لي عام ١٩٦٨ في جريدة محلية هي جريدة "الأماني" بعنوان "زهرة بين الأشواك". أما هذه القصة فهي أول قصة قصيرة نشرت لي في صحف العاصمة بغداد، صحيفة الراصد، في عام ١٩٧٢، وكان الناقد العراقي الكبير المرحوم عبد

الجبار عباس مشرفاً على الصفحة الأدبية لصحيفة الراصد، وكتب مقدمة لهذه القصة التي انشرها كما نشرت في تلك الفترة.

قال الناقد عبد الجبار عباس في مقدمته للقصة: (قصة قصيرة ذات موضوع طريف وجريء طالما كان غياب ما يشابهه من أسباب فقر وضيق أقاصيصنا الواقعية، ورغم أن "أوراق متعبة" بحاجة إلى كثير من الصقل والتهذيب والإشباع، فقد نجحت في أن تقدم لنا جانباً من الحياة الداخلية لرجل فتح عينيه على السقوط فألفه، ومع الأيام أمسى استمرار السقوط غاية ما يصبو إليه).

***

المحتويات:

ت	اسم القصة	الصفحة
١	* مقدمة.	٧
٢	- الليالي.	١١
٣	- العيد.	١٨
٤	- وكر الدبابير.	٢٧
٥	- يوميات قدح بلاستيكي شفاف.	٣٢
٦	- التابوت.	٣٧
٧	- الكرسي المتحرك.	٤٥
٨	- النهر يجري دائما.	٥٢
٩	- حكاية قصة.	٥٩
١٠	- طائر الفينيق.	٦٣
١١	- المياه.	٦٨
١٢	- احلام المغني الصغير.	٧٤
١٣	- يوم شتائي قائظ.	٨١
١٤	- تحولات نائم نسيَ أن يتدثر.	٨٥
١٥	- أحزان دائمية.	٨٩
١٦	- أوراق متعبة من مفكرة رجل مهموم.	٩٥

٨١٣ /٩٢
ش ٩٩٨ الشويلي، داود سلمان
المغني الصغير: قصص قصيرة/ داود سلمان الشويلي
– ذي قار – مطبعة الحسام، ٢٠٢١
١٠٠ص، ٢١ ×١٥سم
١ ٠ القصص العربية – العراق. ٢ . العنوان
م.و.
٣٩٢٤ / ٢٠٢١

المكتبة الوطنية/ الفهرسة اثناء النشر

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد(٣٩٢٤) لسنة ٢٠٢١